مورفين

مجموعة قصصية

تأليف

هناء عبد الدايم

obeikan.com

طبعة ٢٠١٧

عبد الدايم، هناء.

مورفين / مجموعة قصصية/ هناء عبد الدايم – .- الجيزة: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامي، ٢٠١٧ .

١٢٠ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٠ ٥٢٧ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية القصيرة.

أ - العنوان

٨١٣٠,١

obeikan.com

مورفين

مجموعة قصصية

تأليف

هناء عبد الدايم

obeikan.com

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة

المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٧/٢٥٣٤

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٥٢٧-٠

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

الكتاب : مورفين

المؤلف : هناء عبد الدايم

الغلاف : شيماء هدية

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikan.com

إهداء..

إلى أبى..

من أهدى إليَّ الحياة قلَمًا والقيَم سلِمًا

إلى أمي..

من تاهت فى غياهب العالم بحثًا عني

إلى..

من علَّمَني كيف تكون الحرية.. واختار أن يكون سجينًا.

obeikan.com

إهداء خاص

إلى عاشق العربية، مَن تفانَى فى تصحيح وتدقيق هذا الكتاب

محمود سلام أبو مالك

obeikan.com

مورفين

"منتصف الليل"

استيقظت على ألم يعتصر أوردتي، كأن قضيبًا من الفولاذ يشق أحشائي، لم يفلح التهام حزمتين متواليتين من الأقراص المسكنة؛ فاستعنت بصديق وكان طويلاً ما يقضي الليل في الطهْي، وفي النهار يلتهم ما اقترفت يداه، حتى صارت معدته مقبرة جماعية لأطنان من اللحوم والشحوم فباء "بكرش" عظيم، وبعد تحليل مطبخي عميق أفتى بأن ما أعانيه هو أعراض "البواسير"، وأن العلاج الوحيد المجدي في مثل تلك الحالات هو "السمن البلدي".

– سمنة؟! عاوزني آكل سمنة دلوقتي يا محمود؟!

–لا يا سيدي، إنت تفرد حتت سمنة على إيدك كويس.

– آاااه.

– وبعدين إنت عارف هتحطها فين.

أصاب التيبس أسناني حينما شعرت بأن مؤخرتي على وشك استقبال وليمة من النوع البولندي الفاخر، لم يظفر منها جسدي المنكوب بشيء سوى تحويل كل ما هو منزلق إلى ملتصق.

أضناه أن تكون وصفته السحرية عديمة الجدوى، فانتقل من بندِ المأكولات إلى بندِ المشروبات.

- خلاص، عليك بكمادات الشاي البارد.

- احط الشاي على السمنة يا محمود؟!

- في نفس المكان.

ارتسمتُ على شكل هرم مقلوب، يتدلى من حافته فتيل هندي ساخن تتصاعد الأبخرة منه عرقًا كرائحة شواء جلدي، ولم يدُرّ بخلدي حينها من جميع مشتقات وقواميس العربية سوى المثل الشعبي الشهير "لا على حامي ولا على بارد" كأنه إعلان ضخم لأحد الماركات العالمية التي تستقطب جميع أنواع الأمراض المستعصية، "اشترى اثنتين لعلاج البواسير وستحصل على واحدة لعلاج القرح والتسلخات والاكتئاب هدية".

●●●

نهضت من الفراش وقررت الاعتماد على نفسي.

بجولة واحدة في محركات البحث حصلت على علاج لا يحتاج إلى أي مشتقات كيميائية أو حتى طبيعية أو التفكير ثانيةً في الاتصال بصديق، لربما كان في هذه اللحظة في نزاع مع زوجته

فيشير عليَّ بأن أستخدم سكينًا حادًّا للتخلص من كل ما هو مؤلم.

تحررت من كل ما دخل فيه إبرة أو خيط أو شيء معدني، واستلقيت مجددًا. فالإيحاء يعتمد غالبًا على التحرر الدنيوي من كل ما يحيط بالجسد والاستسلام لمعابد النوم الوثيرة مستقطبًا كل ما له علاقة بما تطيب له النفس وما يشد بأزر الجسد من تلك المخمصة. فاستدعى ذهني حينها نسمات المحيط الدافئة وحوريات البشر الهائمة فوق الرمال، تعكس بلوراتها الجلدية أديم النهار سحرًا. وعلى شفا تلك الصلاة أستقيم بخطوات تبثها أناملي بالترتيب فوق موضع الألم كأم تهدئ من روعِ طفلها المنتحب أملاً في الاستجابة.

"أصوات قذف مدفعي"

- أنبوبة مليانة للبيع، اللي حداها أنبوبة.

انتفضت كل بصيلة من الشعر في جسدي مصحوبة برعشة أفقدت وجهي توازنه، فما بتُّ أوقِن هل الفك الأمامي ما زال على وضعيته أم سقط مغشيًّا عليه.

وماذا على أن أفعل؟! هذا حال من ينتقل آسفًا من نسمات المحيط إلى أعاصير الخليج.

●●●

obeikan.com

انتصف النهار والألم على أشده، سلمت أمري إلى الله، سأزور الطبيب.

في غرفة مستطيلة الزوايا تراصت المقاعد الخشبية بشكل مقابل كأنك في مأتم جماعي لمقبرة أسقطت الرطوبة حوائطها والتهم المرض قاطنيها، ولم يتبقَّ منها سوى بقايا أنفاس لرائحة بشر،

جلسَت في المقعد المواجه لي سيدة عجوز، تقاسمت الأيام تجاعيد وجهها، وقد حصنته جيدًا بلفافة من القماش الأسود انتهى طرفه عند عقب قدميها، كان الجميع في حالة إنصات شديد لها، كأنها تروي قصة "أبو زيد الهلالي" والجميع منفعل، فبمجرد أن ترفع يدها إلى الأعلى يتتبعها الجميع صعودًا ثم تسقطها فجأة فتنحني رقابهم إلى الأرض بحثًا عن "شوال القمح" الذي كان يحمله زوجها رافعًا إياه لماكينة الطحين وسقط من فوق ظهره فجأة بعدما تسبب بإسقاط مصارينه على حدّ قولها، ثم تأوهت بتنهيدة عميقة سرقها الصمت برهة.

صوت متلهف من منتصف القاعة: "وبعدين يا حجة إيه اللي حصل؟!".

- "وبعدين يا ضناية جرينا على دَكتور الوحدة، اللّه يسامحه مطرح ما راح، قال لازم عملية ضرورى، ولازم نحط حديدة علشان مصارينه متسقطش، اللّه يرحمك يا أبو مصطفى، الحديدة بعد يومين صدت وعملتله تسمم وما قدرناش نلحقه".

- صوت يتألم: "الكلام ده كان إمتى يا حجة؟!".

- من حوالي خماشر سنة كدا يا ضنايا.

●●●

فاض الكيل ولم أعد أحتمل، يدٌ تهدهد بطني ويدٌ تصفع رأسى، لو سُئل ابن حنبل في ذلك الوقت عن جواز دفع الرشوة لأقرَّ أنها حلال حلال، وما دون ذلك هو الحرام بعينه.

قفزت من مقعدي متجهًا إلى مقدمة القاعة حيث سطح منضدة تتراقص عليها المواعيد تبعًا لكمية النقود التي يحشرها المريض في صدر الدفتر فتحول "التمرجي" إلى بواب يصعد بأصحاب الذمم الطائرة إلى الطوابق العليا وعلى المفلس اللجوء إلى السلالم، مع الأخذ في الاعتبار أنك قد تحتاج إلى المؤن والعتاد من أجل الجهاد في سبيل الشفاء، إن لم تمت في منتصف الطريق.

obeikan.com

تَصدَّقَ جيبي بخمسين جنيه ورقة واحدة، وضعتها يدي اليمنى أسفل الدفتر مع إظهار مقطع عَرْضي بصنعة لزوم الإغراء.

- "أنا عاوز أدخل للدكتور ضرورى، شوف لي حل".

- "تحت أمرك يا أستاذ، اعتبر نفسك الزبون اللي عليه الدور".

على الرغم من انخفاض صوته وهو يبشرني بقرار إقالتي من مقاعد الاحتياطي والاحتماء استعدادًا للهجوم.. فإن خرير التردد قد سقط كسفًا على مسامع أحدهم فصاح قائلاً:

- "هو لسا جاي دلوقتي، إزاي هيدخل قبل الناس دي كلها؟!".

كان كزعيم ثورة في دولة بيروقراطية، يتوه في أروقة الدواوين الحكومية من أجل الحصول على إذنٍ بالتظاهر، وعلى غرار القوالب الحكومية الجاهزة "فوت علينا بكرة يا سيد!".

رد "التمرجي" بثقة:

- "دا حاجز من أسبوع بالتليفون، بلاش تظلموا الناس".

دقيقة وتسللت رائحة المورفين مختبئة في ثياب المرضى على هيئة كتابات هيروغليفية لا يستطيع فك رموزها إلا اثنان: الطبيب الذي كتبها، والعامل بالصيدلية الحاصل على شهادة "الدبلون"،

بعدما تخصص بحكم "لقمة العيش" في كشف شفرات النقوش الأثرية.

●●●

في الداخل، الأمر مختلف، غرفة مكيفة وممرضة أنيقة بزي مهندم وطبيب يستقبلك فاتحًا ذراعيه كأن آخر لقاء كان بينكما على مقهى الفيشاوي حيث الدكك الخشبية والنارجيلة.

أصابني شعور بالارتياح من الوهلة الأولى. فطفقت أروي الأحداث الجلل التي مررت بها بداية من السمن البلدي إلى الورقة فئة الخمسين جنيه، فقاطعني قائلاً:

- "من فضلك، اتمدد على سرير الكشف، ساعديه يا ميرفت"
- "لا، بلاش ميرفت، أقصد مش محتاج مساعدة"
- "لا، حضرتك لازمًا تنام بطريقة معينة علشان أعرف أشخص الحالة، لزمًا يكون وشك لتحت وركبك متنية"
- الألم في بطني، فلِمَ عليَّ أن أنام في وضعية كلب يلهث؟! فاض الوفاض حتى لم يعد للصبر موئلٌ، أمسكت برقبته صارخًا:

– "هل تراني أتقيأ حزم الحشائش وأعواد الحطب؟!".

رد بهدوء: "وهل أخبرتك أنني طبيب بيطري؟! اختر الوضعية التي تريد أن تكون عليها".

استلقيت على ظهري، أخذت نفسًا عميقًا، وبعد تفعيص وتفحيص ظهرت الرؤية.

– "قولون عصبي".

– هل أنت متأكد؟!

– لا، لست متأكدًا، شيء واحد سيجعلني أتأكد.

– وما هو؟!

فوجئتُ بصفعة قوية على وجهي، ارتدت على أثرها الممرضة مفزوعة بضع خطوات إلى الوراء.

وسط الذهول تحولت أحشائي إلى بركان يضطرم، وأصوات قرقرة ودوي انفجارات وبواعث ذرية ونفايات نووية، لم تجد ملجأ تستقر عليه سوى ذلك البالطو الأبيض.

– والقرف يملأ وجهه:

"هل تأكدت أنه القولون العصبي؟!"

●●●

obeikan.com

وعكة سياسية

"قف الآن واذبح رأسك، لمَ ترفض الموت في سبيل الإنسانية؟!

أليست الكرامة إنسانية؟!

وأين تلك البتول التي كانت تحدثك عن عبادة الأشقياء في زمن "إنفلونزا الخنازير"، أماتت بداء الزهد؟!

حينما ترفض المال وأنت في أمس الحاجة إليه، تكون زاهدًا.

●●●

أشعلت سيجارًا أمريكيًا أهداه إليَّ طبيبٌ تصادفَ وجوده معي في قاعة الانتظار لإحدى المنظمات الدولية، وكان حينها يتحدث عن أهمية الهواء النقي، ولعابهم يسيل على أوراق التبغ،

استدار بكبرياء مخاطبًا زعيمًا سياسيًّا بجواره قائلاً:

"أنا لا أنتمي إلى الشرق حقيقة، فجدّي التاسع عشر كانت له أصول أيرلندية".

حلق السياسي بقدمه في الهواء حتى أوشكت الالتصاق بأنف الأيرلندى، مشيرًا بجريدة في يده مستهزئًا:-

"وأنا أول من سيكتب عن أصولك عندما تترشح للانتخابات في البرلمان القادم".

●●●

"السيجار اللعين" كيف لم أنتبه أن دخانك لم يخرج من صدري إلى الآن؟!

كيف تسطو على رئتي؟! ..بنو جلدتك يؤمنون بالشهيق والزفير، فلمَ لا تؤمن إلا بالموت؟

إن سعلت بقوتي لإخراجك، لن يفهم المستهزئون رغبتي في الانتقام منك، وربما برروا ذلك بتحالفي مع الصين.

●●●

حككت يدى بقوة علها تزيل آثار حبر كان يرشق أعداء الإنسانية هذا الصباح، وكان قد تم استدعائي من قبل منظمة حقوقية لأكون ممثلاً لكل من ينطق العربية، مشيراً بيديه إلى ورقة بخاتم عربي مدون عليها شيك بـ ( ) ملايين جنيه لحامله:

- هل توافق؟!

سحبت أقدامي خارج الغرفة ومشهد نساء تلطم وجهها خلفي لا يفارق معدتي ونفسي تزمجر:

" لمَ أمهلني فرصة للتردد؟!"

●●●

فى القاعة، كان ما زال الحديث دائرًا ولم ينتهِ فيضه بعد..

استرسل ذو الأصول الايرلندية قائلاً: "وحدها المجتمعات المتخلفة هي التي ما زالت تبحث في علم السلالات، فأمريكا القوى العظمى في العالم، رئيسها ذو أصول إفريقية سمراء، وهو من دعاكم لضبط النفس حينما اشتعلت بلادكم بالثورة".

حينما أدرك السياسي الانتصار، فعل مثلما يفعل ذووه عادة في مثل هذه الحالات بالجلوس بوضعية يدين وراء الرأس ورجلين مشبوكتين وهو يقول:

"ولم ننس لكم هذا الدور، لذلك كنا حريصين أشد الحرص عندما قتل (مايكل براون) ذلك الشاب الزنجي بولاية (ميسورى) الأمريكية على يد العنصرية المتغطرفة، كنا أول من دعوناكم لضبط النفس، هههه"

●●●

كان الحوار بينهما قد تحول إلى حديث بارد يشبه الأرصفة الرخامية أسفل أحذيتهم، أو ربما يشبه عاملة النظافة تلك، ذات

القميص المدجج والجيب الاستوائي والتى تمر كل دقيقتين تقريبًا لتتأكد من نظافة المقاعد حيث يشتد الحديث.

●●●

"لما تتلوى هكذا؟!".

فاجأني السياسي بتلك الكلمات، ولم ألحظ أن حالتي أصبحت محط أنظار الجميع.

- في الحقيقة، كان سياسيًّا بارعًا وكانت خطبه محط أنظار الإعلام وخصوصًا البرامج التي تعتمد في ميزانيتها على إعلانات رقائق الشيبسي الخارقة، وأنواع من السمن البلدي ستعيد إلى الحياة الزوجية سعادتها، ودقائق لشبكات المحمول التي فاق عددها تعداد من تتلاقى وجوههم يوميًّا.
- لا أتذكر متى كان لقاؤنا الأول، إلا أننى أتذكر جيدًا حينما أرسلت لحضور اجتماع للمفوضية الأممية لشؤون اللاجئين، وقد صدح صوته بكلمات عن (الوطن – الإنسانية – العدالة) مصحوبة بقصيدة لأحمد شوقى مطلعها:

قل للرجال: طغى الأسير طيرُ الحجال متى يطير؟

– لم استغرب بعدها عندما وصلني نبأ تعيينه متحدثًا رسميًّا باسم اللاجئين (وإن لم يكن منهم)، ولولا فضيحته الجنسية التي غطت على أخبار الشيعة في الجنوب، لصار المتحدث الرسمي باسم الرؤساء العرب جميعًا.

●●●

قطع ضجيج قاعة الانتظار صافرة الاستعلام، تعلن أن الدور على الصديق الأيرلندى لمقابلة "رئيس المنظمة"

"لم أعد احتمل".

انفجرت معدتي تعلن ثورتها على الشراشف البيضاء، والمناديل المعطرة، والأغطية المدهبة، والوجوه البلاستيكية، فأُغرقت جميعًا بسيل من اللعاب اللزج ممزوجًا ببقايا الخلطة السرية لطبق كشري فاخر من محلات (أم أمين).

– رفعت رأسي والوجوه تزمجر بكل اللغات، فاصطدمت عيني بالصديق ذي الأصول الأيرلندية يهرع من غرفة المسؤول كمن فاز بصيد سمين، وفى يده شيك بقيمة استثنائية، وخلفه مباشرة السياسي وقد لف يده حول خصر عاملة النظافة..

●●●

obeikan.com

obeikan.com

الثلاثين من العمر

"في الوطن"

الثلاثون لفتاة بلا زواج في أيِّ مجتمع شرقي، هو نصف حياة ودبيب موت وبقايا أنثى، ستحصلين على لقب "عانس" هدية متواضعة، سيحرم عليكِ ارتداء الملابس ذات الألوان المبهجة أو تلك التي تحتوى على قسمات من الخصر أو الصدر أو تلك التي تزج بأعين الرجال إلى أقرب مأذون شرعي، أما عن الوجه فلم يعد هناك حاجة لنتف الحاجب أو شق العين بالسواد أو رسم تفاحة آدم على شفاه ذابلة، فات الآوان، فلمن تتزينين؟!

سيكون عليكِ تغيير خارطة المفاهيم واقتناء مصطلحات جديدة تليق بألفيتكِ الثالثة، لن تكوني تلك الفتاة المدللة التي تذوب الألسنة في نطق أحرف اسمها، فتبعًا لتصنيف "أم زوبة العشري" إن كنتِ في بداية الثلاثينيات من العمر سيندرج اسمك تحت فئة "طنط"، وإن كنتِ في منتصف الثلاثينيات سيكون لقبك الغالب "مدام"، أما إن كنتِ على وشك الأربعين فلا تتعجبي إن ناداكِ أحدهم "يا حاجة" فأنتِ المقصودة لا محالة.

لا أعلم إن كانت الخسارة الفادحة هي الحرمان من عاطفة الأمومة أم قتل الحنين إلى البراءة، فوعاء أنثوي فارغ لا يسعه إلا أن يكون طقسًا من الطقوس الشهرية القابلة للنفاد، ونذير بانتهاء صلاحية عشتار لإرضاء تموز.

اختصرت كل ما مضى في دفتر ورقي وألقيت به في أقرب سلة مهملات، فكيف لطائرة عملاقة من طراز الجلود النحاسية والقلوب الحديدية أن تتحمل حقيبة سفر تخطت الوزن المسموح لها من الذكريات الأليمة، وإن كنا نقسو على تلك الحاملات أحيانًا، فلو علمت مقدار ما تحمله من هفوات الزمن ولواعج الأحبة لذاب النحاس ولان الحديد وتفتقت بالكلم صحيحًا ومجازًا.

قبلت يديها مسرعة نحو الباب، في تلك اللحظة كنت في أمس الاشتياق إليها، إلى حضن أختبئ بداخله، أن تمنحني بعثًا جديدًا في أحشائها، تضمني إلى صدرها، أن تصرخ في وجهي: لا ترحلي، كنت أحتاج إليها أكثر من أي وقت مضى، فلمَ تلك القسوة يا أمي؟!

كنتِ أنتِ طفلتي الوحيدة، كم كانت سعادتي تخجل أمام شيخوختك وهي تقفز متلهفة نحو قطعة الشيكولاتا المختبئة بين تلابيب الأوراق، أو أن تطلبي التأكد من أن "خمارك" منسدل على

وجهكِ بأناقة فأسارع بلمس جبينك بحجة إماطة خصل الشعر الجليدية عن عينيكِ، أو حينما تحاولين ترويض قلم رصاص ليحفر أسماء أبنائك الأربعة على أي ورقة تدركها يداكِ في حين لم تزر الكتابة شفير أسفارك.

●●●

في الطائرة أصابتني نوبة هيسترية من البكاء، قد يكون أشد الأسى قسوة تخلي قلبك عنك بدافع الانتماء للفطرة، أن تكون جذورك في وطن حكم على أوراقه أن تتطاير في وطن آخر كلاجئ سياسي، ولمَ لا؟! فوطن لا يعترف بالحريات.. كأمٍّ لا تؤمن إلا بالأعراف والتقاليد البالية، وما دون ذلك -من وجهة نظرها- هو الكفر بعينه.

استقبلتني الأرض الجديدة بنوع من الكبرياء العاطفية، هُنا حيث تشتعل البورصات بأسعار المحروقات وتلسع أجساد من لا وطن لهم بحرارة الشمس العارية، حيث الأبنية المتكاثرة أورُبيًّا على جوانب الطريق بواجهات زجاجية عملاقة تفتقر الهوية، فمن عادة الزجاج ألا يحتفظ بغبار المارة، لن يُظهر إلا انعكاس صورتك بحسب سنك الافتراضية، يرفع دائمًا شعار "المجد لمن يمتلك المال، والوطن لمن ينفقه"، يمنحك دعوة مفتوحة لإنفاق كل ما في

جيبك لتكون في النهاية "اللميع". ادفع أكثر، تحصل على لمعان أكبر.

ولأن الزجاج صديق خائن لا يحتفظ بالعهود والمواثيق، لن يعترف بك وطنًا أو مواطنًا، يمحو آثار جرائمه أولاً بأول، رحم الله شهداء التاريخ، كان الأمر يصل حد التضحية بأنفسهم وذويهم في سبيل حجر عتيق نقشت عليه عبارة من عبارات التوحيد، في زمن كنا نغرس في كل أرض تطؤها جيوشنا أثرًا، نقوشًا وفسيفساءَ وخطوطًا كوفية، كنا نؤرخ للنصر والهزيمة، وأن أمر الله هو الغالب، حين صرخت تلك العائشة في ابنها "أبو عبدالله محمد بن الأحمر الصغير" آخر ملوك المسلمين في غرناطة قائلة: "فلتبكِ كالنساء مُلكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال" لم تكن تعلم حينها أنه آخر من بكى من العرب، هل رأيت رجلاً يبكي الزجاج هذه الأيام؟!

"في الغربة"

كان شرطًا من شروط التقدم للوظيفة بخلاف الكفاءة أن تكون امرأة ذات مظهر عصري وغير متزوجة، فكيف لامرأة في ميدان الحرب أن تطالب بهدنة من أجل إرضاع صغيرها أو تغيير حفاض مبلل أو حتى التأكد من صلاحية بقائه على قيد الحياة من العدم.

راقتني الفكرة كثيرًا خصوصًا أن فكرة الزواج كانت أبعد ما يكون عن مخيلتي، استحضرت حينها صورة أمي حينما تسللت إلى غرفتي ذات مساء وقد اصطبغت عيناها بألوان حسرة، سكبتها على أثير متهدج لا يكاد يبين:

- "لماذا ترفضين الزواج؟! هل تنتظرين شخصًا ما؟!".
- كانت كصوت ضمير غائب، كحارس توقيت يصرخ في وجهي كلما تحركت العقارب خطوة إلى الوراء في ساعتي الرملية. في كل مرة كانت تغتالني النفس قبل أن أجيب ببضع لقطات من عنفوان الزمن اختُصر فيها كل مبادئ الدين الرحيم في عصا لم تخطئ طريقها يومًا.. "واهجروهن في المضاجع واضربوهن".

في كل ضربة كانت تخترق جسدها نزفًا، كانت تتعالى صرخاتنا: كفى.

كنا نختبئ أسفل السرير وأفواهنا ترسل الصرخات صامتة إلى جوف الأرض خوفًا من أن تبلغها العصا، كما حدث لها سابقًا.

- في يوم نزاع مأساوي قررت الهرب، أسرعت في الظلام وصوتي يرتفع كصيحات إنذار مدوية، لم أنتبه إلى أن عوادم تنفُّسي تطايرت إلى مسامع جميع البشر إلا حينما التفت أمامي،

فإذا بنواعير أسمنتية تتهامس فيما بينها، عن أى قطيع انشق هذا الصغير؟! تتلقفني الأيدى هنا وهناك إلى أن تخطيت حدود المدينة بصخرة، كانت هي موئلي وملاذي.

●●●

"سجن جديد"

ـــ هل توافقين على شروط العمل؟!

ـــ نعم أوافق.

استغرق الأمر قرابة ستة أشهر حتى تأقلمت أصابعي على عزف رباعيات مانديلا في سجني الجديد، وكما الشيوعية تقتضي الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج كنت أنا "ملكية مشتركة" ووسيلة إنتاج لا تنضب، فسرعان ما استغل لصوص المال وعبيد الثروات نهمي للعمل فتحولت إلى أداة طيعة في يد طاغية.

نعم، كنا نحلم بالمساواة بين الرجل والمرأة، فتخلى الرجل طائعًا عن كل أعبائه، وتخلت الأنثي طائعة عن كامل أنوثتها، فلم يتبقَّ سوى أشباه رجال وبقايا نساء وقوانين تُسن كل عشر ثوانٍ لتُخترق وبرامج دينية يتهافت عليها المعذبون لتفسير أحلام لا تعبر عن شيء سوى خلل نفسي وأزمة إنسانية محتملة.

ألقيت بحطامي على الوسائر الذهبية حينما فاجئني اتصال من مكتب المدير يطالب بحضوري في ساعة متأخرة من الليل.

بصوت متردد: "سيدي، أتعلم كم الساعة الآن؟!".

صوت يرد من الهاتف كنداء آلي من صوت مذياع:

"لم نعد في زمن الطواغيت يا آنسة، بدلي ملابسك بسرعة، أنتظرك في الأسفل".

استقرت السيارة بعد انعطافها أمام شارع مكدس بالأضواء والأروقة، داخل تلك القاعة لا ترى إلا كائنات ليلية تتراقص على أعتاب الفضيلة، افرك عينيك جيدًا فأنت لست بالحارة الحمراء في أمستردام، أو منطقة "ريبرباهن" في هامبورغ الألمانية أو في حانة بمدينة شنغهاي كما قال ويليام بتلر، بل أنت في مدينة إسلامية تقام فيها الصلوات خمس مرات يوميًّا على إيقاع غربي وترانيم عصرية.

كان جلبابي الذي ارتديته على عجالة يستجير بالأرض خجلاً، ونظرات كاسية عارية تفتش عني بداخله من كل جانب، أدركت الآن لمَ أصيب مديري بنوبة قلبية حينما رأى شوالاً أسود يسقط أمامه من عتمة الليل يكاد يخطئ فيه موطأ القدم من معصم اليد، لم تفد محاولات التأفف والزمجرة سوى هضم باب السيارة

الطائـر أطـراف أصابعـه، فأوقـظ الألـم غيبوبتـه بصرخـة قـاد علـى أثرهـا السـيارة بسـرعة طائـرة نفاثـة.

"فوق الصخرة"

أغمـض الضبـاب أجفانـه علـى حـدود بصيرتـي، أشـباح بيضـاء تتهافـت حولـي مـن كل مـكان، يقطـع رمحهـا بـين الفينـة والأخـرى دبيـب ذوات أربـع تتحسـس فريسـة أقعدهـا الضيـم بـلا مـأوى.

سـقطتُ مـن أعلـى الصخـرة لألتصـق بجدرانهـا، احتضنتهـا بكلتـا يـديَّ فاختـرق حـزام قلبـي أصـوات بـين أثنـاء ذراتهـا يـدق وقـد اصطدمـت أطرافـى بشـيء معدنـى فأحكمـت عليـه قبضتـي، سـرى الـدفء إلـى جسـدي يغازلـه، فغـط في نـوم عميـق علـى صـدر تلـك الحنـون.

في الصباح شـعرت برعشـة بـاردة تتلمس جبينـي المتصبـب عرقًا، ربمـا تعـدت درجـة حرارتـي الخمسـين عامًـا، الأشـباح مـا زالـت تطاردنـي، انتصبـوا يتأملـون وجهـي كالبنيـان المرصـوص، مـا زلـت أشـعر بنبضهـا كأصـوات طبـول، يـدي ممسـكة بآلـة حـادة لا تحـرك سـاكنًا، أذرعـى ثقيلـة، قطـرات المطـر مـا زالـت تتسـاقط وأصـوات نفـخ البـوق تعلوهـا.

"لا، لا تقيمـوا السـاعة الآن أنـا قادمـة يـا أمـي، وسـأنتقم مـن أجلـكِ".

صوت ينوح: "ما زالت تهلوس".

صوت يرد: "أنتِ السبب".

على الرغم مما كانت تعانيه من ألم مبرح تشكل على هيئة أهلة زرقاء وحمراء تسبح في فضاء كونها العاري، فإنها طفقت تخصف على كل بؤرة تشتعل أكوامًا من الثياب علها تطفئ حرائق العمر المستعرة.

كان وجهًا أنثويًّا يتصنع الفكاهة، وقد تهشم نصفه الأيسر، فأباح للنصف الآخر صدقًا كاذبًا.

قالت مازحة: "أنتِ رجلي من الآن"..

مسحت على جسدها الملتهب، "وسأظل كذلك يا أمي".

●●●

"في الملهى الليلي"

أشرق الصبح والنقاش ما زال دائرًا حول أزمة النفط العالمية وبوادر حرب عالمية ثالثة

- ألا تتفقين معي؟!

وصلني صوت الضيف مشوشًا بعد ما أصابه عيار تسلل من فوهة مدفع روسي يتلوى على شفاه امرأة تدعي الغناء فخرجت كلماتها مدججة تتبني الهجوم الانتحارى على الذوق العام.

وكالأنظمة العربية صرت أستنكر وأندد وأشجب، وكان الرد حاسمًا قاطعًا:

- "لا أتفق".

أغرق الضيف رأسه في طست النبيذ غير متوقع الرد، حينها قذفني المدير بنظرة نارية تداركت خلالها مدى سوء الموقف، فالتفت إليه سائلة:

- معذرةً سيدي، لم أنتبه، عن أي شيء كنت تسأل؟!

هم بالوقوف ووجهه ما زال معلق بالطاولة قائلاً:

"لا عليكِ، علي الرحيل الآن، فلنكمل الحديث في وقت لاحق".

على غير العادة، كان كل عميل جديد يطالب أن يكون مبناه متحررًا من قيود الأرض بنشوة الارتفاع، كالمبنى الراقص على إيقاع الروك أند رول الأمريكي أو كمبنى الأطباق الطائرة في تايوان، ولكنه أراد مبنًى عربيًّا بخطوط وواجهات خزفية باللون الأزرق الفيروزي وزخارف نباتية متميزة بالتوريق والأرابيسك.

كان رجلاً بزي أوربّي وقلب عربي في مجتمع مثقلاً بتركة تمرد عليها بنوها حيث لا يخلو موضع قدم من خواجة الفكر والعقل، أذهب عني الحرج حينما اتصل في اليوم التالي ليطمئن على صحتي، ويعتذر من سوء اختيار مكان لا يلائم عذريتي.

"قلقت عليكِ، أتمنى أن أراكِ ثانية، كان جلبابك الأجمل من بين أردية الأرض".

- صرت أبعثر الكلمات هنا وهناك أشهد الحوائط والمقاعد والأبواب وأستحلف الثياب، أي منكِ ستكون الأجمل في عينيه؟!

التصقت بالمرآة أطلب عونها:

- "أنا فتاة حديثة العهد بالرجال.

فأخبريني كيف يكون آدم عندما تلتقيه حواء!

كيف يكون النظر إلى النظر استحياء!

وكيف يكون الهوى في عصم الشوق رجاء!".

فهبت بي صارخة: "ألم تتعظي؟!".

●●●

obeikan.com

أنثى بنصف ذكري، كمن يعيش بين متواليتين متناقضتين، كم تمنيت أن أكون كسائر البشر أحب وأشتاق وألوم وأتعذب، ولكن لمن؟! أنا نصفٌ احترق بجبروت نصف آخر ما زال ملتصقًا به، لن ألين، لن أفرط في حريتي من أجل رجل.

أسدلت غطائي الأسود دون اهتمام بضبط زواياه أو إصلاح إطاره، مكتفية بأن تكون اللوحة الداخلية برسوم طبيعية دون الحاجة إلى إضافة مكسبات جمال صناعية، وما حاجتي إليها؟ هذا مجرد لقاء عمل.

كان بملمح رجل أربعيني، قادني الفضول إلى النظر إلى أصابع يديه علها تحتوى محبسًا يعلن تبعيته لقطاع خاص، فنظر حيث ألقيت بنظرى فقطع حديثه مبتسمًا: "لا، أنا لست بمتزوج".

عضضْت شفتي خجلاً، أثر انفجار بركاني طفح على وجهي، نصفٌ يصرخ: "ومن قال لك إنني أهتم؟!" ونصفٌ يرتكب حماقة التسلل لمواكب الفرح عبر الأسلاك الشائكة، وأنا بينهما ما بين محاولة فاشلة للهرب ومحاولة لإخفاء ابتسامة ماكرة، أبحث عن رد.

"سأوصلكِ في طريقي، سأتصل ليلاً للتأكد من سلامتك، السهر ينهك وجهك الرقيق".

كنت أكره الشعور بالامتلاك أو أن أتحول امتيازًا مقصورًا على أحدهم، لا أحتاج إلى اهتمام مغلف بسوليفان الكلمات كعادة الرجال حينما يريدون الإيقاع بامرأة، كان شعورًا قاسيًا أن يكون الحب مجرد تمهيد لإشباع غريزة وينتهي بمجرد الوصول إلى لحظة انتصار ذكورية، وهزيمة المرأة تحت بند التعلق برجل بات يبحث في كل يوم عن صيد ثمين يعيد إليه المجد والانتصارات.

أغلقت جميع النوافذ والأبواب واتخذت جميع التحصينات الممكنة في وجه عدو خارجي، صار علي مواجهة عدوًّا آخر بالداخل، كنصف تطوع في إحدى الجمعيات النسائية للدفاع عن حقوق المرأة وحقه في الحياة، أغلقت الهاتف، باءت جميع محاولات الصدف المقصودة للقاء بالفشل، فقرر استخدام آخر وسيلة هجوم لديه "طلب الزواج".

●●●

"حول مدفأة الحطب"

ـــ لمَ لا نهرب يا أمي؟!

ـــ ولكن، إلى أين؟!

ـــ أرض الله واسعة، إلى مكان لا يعرفنا فيه أحد.

كانت على يقين تام بأن الزوجة الصالحة هي التي تتحمل الأذى في صمت دون شكوى، وأن استخدام الرجل للسوط حق شرعي، فهي كما لقنتها جدتي جيدًا قبل إتمام مراسم الزفاف بلحظات "ناقصة عقل ودين". والزوج تاج.. ارتديه يكن لكِ الأرض وما عليها، والزوج صون من ذئاب البشر، والزوج نصيب وقدر لا نعلم مجمله إلا بتفصيله، وعيبه إلا من معاشرته فاحفظي خصاله، والعار كل العار أن تعيريه بالنقص أو تلجميه بالرد، والزوج سكن لن تغادريه أبدًا إلا إلى القبر، ونسيت بعد كل ذلك أن تلقنها الشهادة.

وكان من العسير عليها أن تقتنع أن هناك فتياتٍ لا يرغبن بالزواج وأن "العنوسة" قد تكون اختيارًا إراديًّا، جن جنونها وطار طائرها حينما قالت لها جارتنا يومًا: "لمَ لم تتزوج ابنتك إلى الآن، أبها عيب؟"

باتت تنوح في وجهي جهارًا، انقلبت بزاوية مئة وثمانين درجة، انعقد تفكيرها بالكامل حول ألسنة الناس وما يدور حولها، فكان جل اهتمامها أن تتفاخر بخرقة مزينة ببضع نقاط من اللون الأحمر وبحائط انتسب إليه وظلال رجل، أن أسير على قضبان متآكل وقطارات معرضة للانفجار في أي وقت أفضل من أن يردد الناس "ضربها العُمر ولم تلحق بالركب".

طال النزاع وطال الخصام بيننا، انقطعت عني كل سبل الحياة، صرت ضيفًا ثقيلاً غير مرغوب فيه، انتهت مدة إقامتي المتفق عليها قدريًّا، عليَّ الآن أن أرحل من منزل عز عليَّ أن ألمس كل قطعة فيه أو أشم رائحتها لأنها تخلت عني في أقسى أوقات محنتي.

فكنت أمام خيارين لا ثالث لهما، زوج أو القبول بفرصة للسفر.

تمنيت أن تتفكك أشلائي لتتناثر في محيط لا قاع له عل الروح تهدأ، فمن كنت أحاول حمايتها.. هي مَن تطلب مني الرحيل، آاااه لو أستطيع إخراج الألم في آهة واحدة.

●●●

"لا مفر"

– قد يكون كل ما نحتاج إليه لكسر حاجز "الرهبة" هو زلزال مدمر بقوة ألف ريختر "زلزال الحب"، على أن يسبقه إعصار الرغبة في مواجهة أسمال رثة ما زالت تكسو سقف الماضي تحت ادعاء فقر الإرادة وربما فقدان الثقة.

هـذه المـرة لـم تكـن لـدي حقائـب لأحملهـا، ولا حوائـط لأتضـرع أمامهـا، فمـا زلـت أمـام ذلـك المبكـى أفتـرش القرابـين علَّ عامًـا مـن الغربـة ينهـي أعوامًـا مـن الاغتـراب، وهـا أنـا أرحـل ثانيـة، فـكان لـي بالمرصـاد، أغلـق أبـواب الهـرب وألقـي بحبالـه فـإذا هـي تلقـف مدامعـي وتلتهـم حواسـي.

- "أتقبلين الزواج بى؟!".

- "ولكـن حولـك الجميـلات في كل مـكان، فلـمَ لا تختـار واحـدة منهـن؟!".

- "كلهـن مـن زمـن الزجـاج، هـل رأيـتِ رجـلاً يصـارع مـن أجـل زجـاج؟!".

- "عفوًا سيدي، أنا نصف أنثى".

- "وأنا أرضى".

- "ولكن نصفي الآخر لن يرضى".

- اقترب أكثر "عليَّ تقديم الرشاوى له من الآن".

●●●

تميمة

(١)

لضيق الوقت نزعت أوراق خزينتي فتبعثرت محتوياتها، سقطت منها بطاقة أثرية، في طريقي أخذت أقلبها يمينًا ويسارًا لعلي أتذكرها، شيء من رحيق الماضي جذبني إليها، أفلتت يدي فجأة فطارت في الهواء، هرولت مسرعة خلفها تطاردني المركبات على الطريق والألسنة على حظي العثر، في طريقها تعثرت في قطيع من البشر فلم تجد متنفسًا لها، سقطت مطوية تحت الأقدام، حينها تذكرت أن أول مرة رأيتها كانت في لقاء مع حذائي.

(٢)

في محطة المترو خيل إلي أن جحافل النمل استعمرت العالم السفلي بأكمله، جاهدت بكل قوتي لكي أصل، فحملتني أقدام الحشود مهرولة تجاه محطة الجيزة.

في الداخل، تحولت إلى سمكة مملحة فاحت رائحتها، رفعت رأسي إلى الأعلى أحاول جاهدة جذب كمية من الأكسجين تساعدني على النطق: "لم يكن ذلك اتجاهي".

للحظات شعرت أن عربة المترو تعود إلى الوراء، تندفع داخل مقبرة متحركة في باطن الأرض.

(٣)

فُتح باب المترو فجأة، يحاول أن يفرغ ما ابتلعه، تمسكت بأحد الأعمدة الحديدية داخل القاطرة إلا أن عمودًا من نوع آخر دهمني، أفقت على ألم يعتصر أضلاعي بعدما أطبق عليَّ الباب اللعين أنيابه.

انقطع التيار الكهربائي، فأصدر القطار صوت حشرجة فجائي متوقفًا عن تقليب محتوياته صعودًا وهبوطًا.

(٤)

ساد الصمت بين الجميع.

صرخ أحدهم: «هنتخنق!».

صدر صوت من الحافلة المجاورة: «حكومة بنت... بيرشدوا الاستهلاك يا سيدى».

لاح صوت أحدهم من تحت العباءة يزمجر:

«ذلك جزاء من اختار تلك الحكومة العاهرة، نسوا الله، هذا عقاب الله لكم!»

صوت من بعيد:

«طب ما أنت يا سيدي هتموت معانا، إنت من الكفار برضو؟!»

ساد الصمت من جديد.

(٥)

التهبت الأجواء، وارتفعت درجات الحرارة.

صوت يقترب:

«السواق بيقول في سلك ملمس محتاج وقت علشان يصلحه».

صوت يرد:

«يا مسهل».

(٦)

صوت قادم من العربة الأخرى: «محتاجين ورقة، حد معاه ورقة؟!».

صوت ساخر: «ولو معانا هنبعتها إزاى، من تحت الباب؟!».

– أخذ الجميع يفتش بعناية، لا أعلم كم مر من الوقت ونحن عالقون، أدخلت يدي إلى جيبي بصعوبة، أخرجت هاتفى، فأصاب النور ورقة ملتصقة بحذاء أحدهم،

obeikan.com

دفعته بقوة «هى الورقة ذاتها»، تقابلنا من جديد.

(٧)

تلمست الطريق إلى أن وصلت إلى الحد الفاصل بين القاطرتين مددت يدى، «ها هي الورقة».

ثوان قليلة، إندفع القطار بكامل قوته، اكتمل نصاب الطريق فأوقف زحفه، استنشقت الهواء أخيرًا، اتجهت مسرعة إلى السائق.

سيدى: «رُدّ الدين، أعد إليَّ ورقتي قبل أن تصفعها أحذيتكم، ربما تعطلت عقولكم في طريق عودتي».

●●●

obeikan.com

كافر

(١)

في الشارع التجاري التابع لأحد رجال اللاهوت، وعلى غير العادة تجمهر حشد من الناس حول امرأة جالسةً القرفصاءَ تبكي، بلسعة الخجل وكلمات السباب واللعن تقذفها من كل جانب، والسبب ربع كيلوجرام من العدس. شد أصحاب الشهامة عقال التاجر خوفًا من أن تقطع حوافره دعاءها المرتجف ظلمًا، وقد تمزقت ملابسه فخرَّ بعضها حيث صار محور الدوران لعجلات الطريق.

تكومت على قارعة الطريق حتى اتسع نشيجها فخرج من حبكة الصدر إلى فضائه يتعالى:

"غشاش، سينتقم الله منك".

فلما سمع التاجر تلك الكلمات هاج وماج وبلغَ بيديه ما بلغَ بلسانه ولولا كرامات العابرين لتحوَّل إلى كرة من المطاط ينفس فيها عن غضبه، دقائق قليلة وانفض الجمع وفرغت الساحة إلا من المارة وعبارات ظل ينشدها بسخرية الوعيد هنا وهناك: "أين ربك؟! فليأتِ لينتقم، أنا ها هنا أنتظر".

كان أقرب إلى رجل مسن في الستين من عمره، توارث المتجر عن أجداد أجداده، من السهل عليك أن تلحظ ذلك وإن كنت من أهل الأحياء القديمة أو مجرد سائح أو عابر سرير، ربما رائحة الغبار التي تغطى قوالب الطوب البارزة، والتي حلت محل أحرفٍ ما زالت محفورة على الواجهة الأمامية بالخط الديواني المزخرف "تجارة سركيس بك أفندي وأولاده" أو ربما آثار التآكل الواضحة على أواني خشبية صنعت من خشب البامبو بعناية فائقة، مرصوصة بانتظام مسلسلٍ تبعًا لكل نوعٍ من أنواع الحبوب الغذائية.

وكان منعدم الصداقات كثير الهمهمة، نلت شرف مراقبته بحكم جوار جمعني به.

في المرة الأولى التي سمعت فيها كلماته ترشق الله جهارًا انتصب شعر رأسي من هول الفاجعة، فما زلت أتذكر يوم أن مرَّ عليه شحاذ ضرير يسأله الحاجة فقذف إليه بقطعة نقود فضية فطفق السائل يهلل بعبارات الحمد والشكر، فما كان من التاجر إلا أن فضَّ قبضته واستعاد منِّتَه وصرخ بضراوة:

" أنا من أعطاك وأنا من منحَك، كيف تحمد من لم ترَه، إذًا .. فاذهب إليه ليعطيك!".

فرفع السائل رأسه يتلو قوله:

﴿أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم من الصادقين﴾.

فزاد في طغيانه مستهزئًا:

"خلقك من دون البشر أعمى، حرمك الغنى ووهبك الفقر، فكيف تؤمن بإله ظلمك وحط من شأنك؟!".

فاتَّكأ على عصاه قاطعًا الطريق، وأنفاسه تردد:

﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

ولكن القدر لم يمهله كثيرًا، فسرعان ما صدمته مركبة مسرعة، فألقت به جثة هامدة على جانب الطريق، قفزت من مقعدي من هول الصدمة ما بين الفزع وشهقة الروح، حينها كانت نظرات التاجر قد علقت بي كأنه لم يجد جمهورًا ليتفاخر بنجاح ظنه أمامه سواي، فمصمص شفتيه وراح يهز رأسه يمنة ويسرة مظهرًا الأسف، ثم أردف ملوحًا بأصابعه:

"لو كان له رب يحميه.. ما مات كالكلاب الجائعة على حافة الطريق، عاش واهمًا ومات بائسًا".

obeikan.com

- استقرت صورته في ذهني وشلال الدماء يغرق أخاديده المتهتكة وقد انفرطت حبات عقده كأنها كرات دم حمراء تصارع المارة كي تعيد إليه الحياة حتى بات في مجلسي رفيقًا، وفي غطائي، في طعامي، كلما هممت بابتلاع لقمة وقفت كالغصة في حلقي، تُرى كم مرةً تألم جوعًا، وكم ليلةً لفحته البرودة؟! وكم لحظةً تمنى فيها أن يرى الألوان ألوانًا؟! وكم كلمةً سبته؟! وكم غليظًا استقوى عليه؟!

ثم طافت الأسئلة تتزايد... ما ذنب الأعمى أن يكون أعمى؟! وما ذنب المجنون أن يكون مجنونًا؟! إذا كان الله عادلاً، فلمَ منحهم العجز وفوقه الألم، لمَ الغني يزداد غنًى والفقير يزداد فقرًا، كيف وإن سرق وسلب ودمر ونهب؟! بأيِّ قانون سيحاكم؟! وبأيِّ ذنب سيعاقب؟!

نفضت رأسي سريعًا من تلك الأفكار، واستعذت بالله ثلاثًا علَّ مسًا شيطانيًّا أصابني، ثم توضأت وتهيأت للصلاة.

في المسجد حيث اصطفَّ الناس في خطوط متوازية يتناحرون على الصفوف الأولى، تأملت حالهم من بعيد، إن كانت العبادة الحقة تعتمد على صدق اليقين وهذا الصدق يتطلب إقناعًا ذاتيًّا لا تشوبه شائبة ولا تحركه الأهواء حتى يصير علاقة قاصرة على

طرفين، عابد ومعبود، فلمَ عليَّ أن أظهر ذلك للناس، لمَ عليَّ أن أندس وسط طابور من البشر لا يخطو معظمهم باب المسجد إلا لأنه واجب ديني متوارث، أو ربما لأن درجة صلاح الفرد تقاس بعدد المرات التي يدخل فيها المسجد بشواهد الحضور، أقسم أن بشريًّا لا يقرب الصلاة ولا يأبه لما يظنه الناس خيرٌ من مؤمن بالوراثة عبد لأحكام البشر.

ثم من الذي استعمر الصفوف الأولى، رجل ذائع الصيت وصلَ بموكبه متأخرًا فأفسح له الجميع الطريق ليكون أول العابدين، وآخَر وصل من حد أناقته ورائحته الذكية أنْ تخلى له أحدهم عن مكانه بعدما أصابته نظرات الجميع باللوم، كيف لمثله أن يصلي بالصفوف الخلفية ومثلك بهيئته المرقعة يجلس جنبًا إلى جنب مع أصحاب السمو والفخامة، وآخر بات معروفًا أن موقعه في الصلاة محجوز في واجهة الإمام مباشرة مهما تأخر حضر أو لم يحضر، وإن فكر أحدهم في كسر القاعدة يومًا، إن لم يذكره الجيران في الموقع فستذكره خطبة لاذعة عن عدم جواز انتهاك حرمة الوارث.

-إن كان هناك إله جبار في الأرض وفي السماء.. فما حاجته إلى عبادة مثل هؤلاء؟! ما حاجته إلى سجود منافق وركوع منافق، ودمع لا يسكب إلا وقت العسرات؟!

كأن كتل حجرية تهاوت فوق صدري، كأن وجودي في هذا المكان ليس إلا لمناصرة عمم أجازت لها الطاعة العمياء تقبيل الأيدي عقب كل صلاة وتحريم ما جاز وإجازة ما حرم تبعًا لما تقتضيه الظروف، مع العلم أن كل مخالف ستصيبه لعنات إله لا يقبل التقصير ولعنات أتباع إله في الأرض، ومن غضب عليه صاحب العباءة لعنه سائر العباد.

قطعت الصلاة هربًا أتسلل بين حشود المارة ربما انزلقت ركبتاي فارتطمت بصلب الأرض أو اصطدمت بعمود حديدي أو تدحرجت من شق إلى شق، ولو قويت على النفس حينها لشُقت رأسي في أقرب حائط كي تتخلص من كل هواجس الشك المستعرة.

جلست على عتبة الدكان أرقب ذلك المعتوه يطفف الميزان بحيلة اتبعها التجار قديمًا حيث كانوا يلصقون قطعة من المغناطيس أسفل كفة الميزان التي تحوى البضاعة المباعة فتستحوذ على جزء من مكيالها فيبيعها بوزن منقوص وثمن باهظ حتى عفه الناس وفسدت تجارته فصار يخلط ما بطل منها بصحيحها وكثيرًا ما ردت إليه.

كنا في نفس العمر تقريبًا، نوع من الشفقة كان يغمرني تجاهه، ولد لأب أرميني النشأة نصراني النزعة، اضطر لاعتناق

الإسلام خوفًا من أن يقع أسيرًا في قبضة الجيوش العثمانية بعد إعلانها ضم أرمينيا الصغرى ضمن ممتلكات الدولة العلية، ولكن ساءه أن يترك نصرانيته من أجل دين جديد لم يكن في نظره إلا ابن غير شرعي لإله لم يكن له سوى ابنٍ روحانيًّا واحدًا، فانعكس ذلك على تربيته لابنه الوحيد، ففي النهار كان مضطرًّا لأن يدفع به وسط حلقات التحفيظ والتجويد وفي المساء يلقنه تعاليم النصرانية ومبادئها، أي دين سيختار وقد توارث البشر حوله الأنبياء كآلهة، هنا شيوخ يدخلون الجنة بغير حساب وهناك قساوسة ورهبان يبيعون صكوك المغفرة لمن أراد التوبة.

أرخيت عين جحّظها الشك على جمجمة يكاد يفتك ارتطام الأفكار بجدرانها، وربما أدت لانفجار صرخة مكتومة أثقلتها الذكريات زمنًا، آن الأوان لها أن تولد بعد ستين عامًا من البعث، نظرات أبي وهي تخدعني بألوان الحلوى كتعويض حينما عاقبني شيخ الكتاب ضربًا بخَيزُرانة تسببت في شقوق طولية وعرضية في الظهر فتسرب إليها الكره حتى طفح على جوانبها.

لم تكن لي قدرة كبيرة على الحفظ والتجويد، وكان لي عقل غالبًا ما يسأل عن معنى أول كلمات اضطر إلى ترديدها وسط حشود من قصار القامة تجلس القرفصاء بعضها فوق البعض وربما نام نصف الحشد ونصف الكلمات تترنح وسط ترتيب

الأبجدية حتى التبست عليها المفردات واستسلمت لنوم عميق فهدأ الضجيج رويدًا رويدًا، وكان الشيخ عادة يختار أكبر الوافدين سنًّا والذين أجادوا التلقين لتحفيظ الفئة الأصغر سنًّا في حين جلس هو على دكة مرتفعة يختار من بين الحضور أسوأهم حظًّا للتسميع بين يديه.

أنت، يا من تجلس في تلك الزاوية تحملق في الوجوه، تعال إلى هنا.

تأففت وقبضة يدي تضغط على الأرض فاندفعت قدماي كحلزون ممدد في اتجاه عكسي يصعق في طريقه أكوام من الأصابع حديثة الولادة ممددة بشكل مائل كي تمنع الجسد من السقوط في هاوية النوم، وصوت الآهات يرتفع كلما اقتربت منه خطوة للأمام.

فصرخ وشظايا الشرر تتطاير من عينيه:

- لمَ لا تردد معهم؟

- أنا لا أفقه ما يقولون.

- هذا كلام الله عليك بحفظه أولاً، وعندما تبلغ من العمر رشدًا، ستحصل على الشروح كاملة.

- لن أنتظر، أريد أن أفهم الآن.

- وما الذى تريد فهمه؟

- "قل هو اللّه أحد. اللّه الصمد .لم يلد ولم يولد".

- أما الأولى فتعني أن اللّه قد خلق الكون بمفرده، أما الثانية فتعني أن اللّه قد صمدت إليه جميع المخلوقات تتضرع إليه وتستغيث به، أما الثالثة فمعناها أن اللّه ليس كالبشر فقد ولدنا من أمهات أما هو فلا، ونتزوج وننجب أما هو سبحانه فليس له ولد ولا والد ولا صاحبة.

- فمن أين أتى إذًا؟

- هذا السؤال من عمل الشيطان، إياك أن تسأله بعد الآن عد إلى مكانك وردد كما يرددون، أريد سماع صوتك عاليًا، وإن لم تفعل للقنتك درسًا لن تنساه.

لم تكن تلك المرة الأولى التي أهرب فيها مستغلاً انشغال الشيخ بهضم ما تحصّل عليه من أجر هذا الصباح، فكثيرًا ما راودتني فكرة الهرب بلا رجعة غير أن عيون أبي كانت لي بالمرصاد، وكان ذلك يروق الشيخ كثيرًا وخصوصًا أن أبي كان يدفع إليه باعتذار يملأ جيبه في كل مرة. فكان كلما زادت علامات

الضرب على جسدي كان ذلك دليلاً واضحًا على الاهتمام بالزبون ومتابعته، في كل مرة كنت أعود فيها مرغمًا كانت هناك جملة واحدة لم تفارق لسان أبي وعصا الشيخ..

"اكسر أضلاعه، المهم أن يحفظ" وكان الجواب بمدى الاهتمام يصل أبي دائمًا بقائمة من الخطوط الزرقاء والحمراء في جميع الاتجاهات تكتسح جسدي.

(٢)

في صحن الدار تحولت زوجتي إلى عجين مختمر من كل الزوايا وقد افترشت جسدها علكة تمضغها التناوي والزوائد كلما حطت بثقلها على الأرض.

أرهقني جمع تفاصيلها من على بعد، بات من الصعب ذلك، وقد كنت أنا الملم بكل ما تحتويه من فتن وخبايا بفعل الشهود وبضع أوراق ثبوتية، كيف انطمرت كل تلك البروز في عيني، وكيف نمت دون رقيب أو عتيد تقصل كل ما نما لديها من أنوثة.

التفتت إلى بعين الاهتمام حينما أدركت وجودي المفاجئ، استعانت بمعصم الحائط وكتف الطاولة ربما أعاناها على النهوض، ومع كل حركة ترتفعها تكاد تسمع أصوات عظامها تطقطق وكلمة آه لا تفارقها.

تمايلت بحمولتها تزف إلى الخبر، "منح الشيخ إبراهيم ابننا الإجازة وسينتقل لإتمام تعليمه بالأزهر".

تُرى على أي أمر ستتم مباركتها الآن؟! على خبر نجاح ولدها؟! أم خبر زواجي من امرأة أصغر سنًّا وأكثر جمالاً؟!

كيف سأزف لها خبر إقالتها من عنفوان الحياة قهرًا، أيها الضمير عذرًا، لا أعلم متى ستلحق بي النهاية الحتمية كالخرفان، أليس في متقد السعير شيب وفي شرع الهوى الجنان؟!

كان الفارق بيني وبين زوجتي الجديدة أربعين عامًا، حظيت بطفلة أنجبت طفلة، كنت حريصًا على أن ألقنهما الحياة من أجل الحياة دون خوف، ثمة نوع آخر من السعادة أدركته مؤخرًا، ذلك أن باستطاعتك دائمًا امتلاك كل ما تريد فالدين الأوحد لهذا العالم قائم على أن كل شيء مباح للمتعة دون تحريم أو تحجيم أو ممانعة، فارق المتعة بين كل فرد وآخر سيحكمه قانون القوة، فما الفقر والجهل والمرض إلا أشخاص أعلنوا هزيمتهم في معارك الحياة قبل أن تبدأ معللين نكباتهم بالرضا بما كتب مسبقًا لهم، ومن أحبه ربه ابتلاه.

فالقناعة الحقيقية هي زهد النفس عما شبعت منه، أن تشرب حد الارتواء من كل شيء حتى تكتفي، لا أن توهم النفس بأن ما في اليد عن قلة خير من كثرة يعانقها الكفاح.

انفتحت على الحياة من أوسع أبوابها، فكان لي في كل يوم حظوة، وفي كل ساعة ربح جديد وريع أكبر من جراء تجارة للخمر والمسكرات عرضها علي جارى العزيز فقبلتها دونما تردد وأدخلتها ممهورة إلى بيتي حتى أصبحت نديمي ومؤنسي كل ليلة.

انقطعت عن العبادة ثلاثة أعوام كاملة بت فيها على يقين تام بأنه لا وجود للآلهة، وربما كان ذلك من أساطير الأولين، وفي أبسط الأمور لو كان هناك إله حقيقي لهداني إليه.

أمسكت "بخالدة" أعلمها ألا تصطدم باليأس في خطواتها الأولى، بت أتحسس جمال الحياة في دقة أناملها على صغرها، وبراءة عطر أدمنت رحيقه يهفو من بين طيات ثيابها. فشغفني حبها وأنا المعصوم من ذبحة الوجد وتعلقت بأوصالي ولهًا لا يشتري، ولمَ لا، وهى التي لا تفهم في لغة الأعمار والأرقام، فكل صفر في هذا العالم رمز حقيقي إلى أن يوازيه آخر فيتحول إلى عبء من الرموز المتشابكة لا يقدر على فك قواه إلا لاعب مارينوت وبضع أوراق بنكنوت.

تذكرت فرحتي الأولى عندما رأيت قطعة مني ملفوفة في شال أبيض بانتظار قُبلة تؤنس صراخه، فضممتها إلى صدري خوفًا من أن تنزلق لصغر حجمها، حينها تمنيت أن يكبر سريعًا

كي يمتطي الأرض إلى جواري رجلاً من صلبي أفتخر به، هو ليس بأب ولا بأخ ولا بصديق، علاقة جديدة من نوع خاص لم يحدث أن شعرت بها من قبل، أن يكون من نسلك الحبيب والسند والعون، انقطع عن زيارتي من فترة فألمني الشوق إليه حينها قررت زيارته في إحدى حلقات الدراسة في الأزهر الشريف.

وقفت على بعد أتأمله كيف صار شابًّا، كان يرتدي عباءة تشبه من يتحدثون باسم الإله على الأرض، بوجه كطبق من نور تدلت منه خصلات الشعر مبعثرة على كتفه، كان شديد الإنصات للشيخ وهو يتحدث عن شروط صحة الإيمان، نزلت الكلمات كأن أحدهم ضرب رأسي بمعول حديدي، كيف سأردد أنا كافر، وطيني يردد أنا مؤمن؟! ألست أنا من هداه للضلال بحجة الإيمان؟!

لحظات وانفض المجلس واصطف الجميع صفًّا واحدًا لأداء الصلاة، أبحرت عيني في جميع الزوايا أفتش عنه وسط تلك الحشود، فأبصرت به الربان يؤم المصلين في حين اتخذ الشيخ مقعدًا خشبيًّا في جانب أحد الصفوف يستند إليه في القيام والركوع.

فوجئتُ بأحدهم يدق على كتفي:

- ألن تصلي؟!

التفت إليه منزعجًا، ثم أتممت المشهد برفع مطرقته عن عظامي دون اكتراث قائلاً:

- سأصلي في المنزل.

فخبط بيديه بكل ثقة على كتفي من جديد، هذه المرة يدفعني إلى الالتفات إليه:

- ولمَ لا تصلى معنا، مع الجماعة؟!

فتوجهت إليه بجسدي كاملاً والغيظ يكظمني:

- ولمَ عليَّ أن أصلي معكم معلنًا ولائي للبشر، ألا تجوز الصلاة إلا بالإشهار والعلن؟!

فقال:

حينما يصلى الحاكم إلى جوار المحكوم والغني إلى جوار الفقير، حينها تذوب كل الفوارق فلا تعظيم ولا تبجيل إلا لوجهه تعالى، يعلمك الله أنك قد تكون بثياب مهلهلة وأثمال مرقعة وتتساوى مع من يرتدون التيجان وأصناف الحلي.

فصفقت له قائلاً:

"هل صليت بجوار حاكم يومًا؟!".

فأجاب: "لا، فلتصلِّ أنت بجواره".

- ماذا، هل أنت؟!

فجذبني من ثيابي بسرعة قائلاً: "هلم بنا، ستقام الصلاة الآن".

ادعيت الصلاة وأنا الخبير بكل طقوسها، جربت لأول مرة كيف تكون مومسٌ في حضرة مراسم النفاق، رسمت الغمغمة على شفاهي كعادتهم، انحنيت ثم سقطت ثم استقمت، انشغلت بالتلاوة عنهم، كان صوته أشبه بالتلحين وترًا على وترٍ، نغمًا على نغمٍ، يزداد جمالاً على جمال، كان صوته ككروان يصدح بين السماء والأرض حتى وصل إلى قوله:

"هل جزاء الإحسن إلا الإحسان ❖ فبأي الآء ربكما تكذبان"

حتى سقط الدمع لا أعلم أسال من العين أم ذاب القلب قطرًا، فسجدت والناس قيام ثم غلبني الكبرياء فنهضت واقفًا، التفت يمينًا ويسارًا أتأمل إن كان أحدهم قد لاحظ سقوطي سهوًا، فإذا الجميع منشغلون بالصلاة، فرفعت ياقتي وأعدت وضع اليدين فوق الصدر.

- انتهت الصلاة فهممت بالانصراف فأمسك الحاكم بيدي قائلاً:

- إلى أين؟! هيا بنا نسلم على الإمام ونثني عليه.

فرفعت أنفي سائلاً:

- أتعلم من هو؟!

فقال: نعم، شاب بائس، سمعت أن أبيه كان يعمل بالتجارة وكان ذا صيت معروف، ولكن قاده رفاق السوء إلى بيع المحرمات، فأهمل زوجته وتزوج بأخرى. في يوم من الأيام جاء هذا الصبي إلي الشيخ يبكي من نقص في القوت والمال ومن مرض والدته مرضًا شديدًا، فطلب مني الشيخ أن أخصص له إعانة شهرية مما تخصص للفقراء، فرحنا نجوب الحواري والأزقة نسأل عن حالته إن كان يستحق الزكاة أم لا، فأخبرنا جيران أبيه في سكنه الجديد أنه بات ميسورًا حدَّ انفاق أمواله كل يوم في أوكار السكر والعربدة في الوقت الذى تخونه زوجته كل يوم مع رجل جديد فشق علينا...

فارتعدت من مقامي أعتصر منكبيه بأظافري صارخًا:

- "ماذا تقول؟!".

فرد باستياء الألم:

- ولمَ غضبت، هل تعرفه؟!

حينها تدخل الجمع لتخليص لحمه من بين أظافري، فأسرعت بالهرب ألوذ بالمساحات المأهولة بالضباب.

"في زاوية جانبية"

مصلٍّ ١: ما كان عليك إخباره بذلك، دعه يكتشف الحقيقة بنفسه.

مصلٍّ ٢: ما كنت أنوي، ولكني رأيته سجد دامعًا ثم انتفض في كبرياء لم يسجد بعدها.

مصلٍّ ١: وهل تأكدت من صحة ما قاله الجيران؟

مصلٍّ ٢: .....

(٣)

- آثار الدماء تلطخ جسدي

ما زالت تلك الآلة الحادة مرشوقة بيدى تارة اضم جثتيهما إلى صدري وتارة أهرول نحو الباب صارخًا، أصوات لطم الخدود وشق الثياب تزداد شيئًا فشيئًا، أحاول فض التجمهر عبثًا، نزعت الستائر المزركشة من على الحائط محاولاً إخفاء عورتيهما بقليل من الزينة، فإذا إحداهن تصرخ:

- كيف تجرؤ على قتلهما؟!

أشعل الصمت جوفي حتى تطاير دخان الأسى من صدري، فألقيت بنفسي جثة هامدة على الأرض ورأسي بين دفتي يدي تصفعها بقوة عله كابوس عرضي.

أوثقني الحراس جيدًا بمحابس حديدية، سحبوني مكبلاً بجريمة كان المفترض أن أطالب فيها بالقصاص العاجل من القتلة،

- صاح جسدى ينتفض، "أنا بريء، أنا لم أقتل".

كانت عتمة الظلم أحلك من ظلام السجن، يا لفظاظة تلك الحياة، كيف يضيع كل ما تمتلكه في لحظة واحدة، فما أقربني إلى ذلك الأعمى الآن، فصار ألمي يردد:

فاقد البصر عزه الاستغناء

وأنا البصير فأين ذهبت بصيرتي

لو كان للموت مني قضاء

لحكم بالحياة لمثلي مؤبدًا

كيف سأموت وأنا على ذمة الغسق، أيكون مصيري مثل ذلك الأعمى، أيتساوى من كان زاهدًا عنها عن من كان مقبلاً عليها،

أنموت ميتة واحدة، فلمن سيكون النعيم إذًا؟! تلك المادة الزئبقية التي كلما تيقنت أنك ممسك بها أفلتت منزلقة ليد أخرى.

- أشعلت السجن غضبًا ذهابًا وإيابًا، دفعت الباب الحديدي بكل طاقتي، قذفته عدة ركلات موجعة علّه يستجيب ثم أمسكت بالقضبان صارخًا، أنا مظلوم، أنا لم أقتل، افتحوا الباب، فما كان من الحارس إلا أن فتح الباب ثم ألقى إلي بسجين آخر ثم هرب.

- من أنت؟!

- ألا تعرفني؟!

- الظلام حالك هنا، اقترب قليلاً، من الحاكم؟! أيعقل ذلك، لا أصدق.

- يا أبله، أرأيت حاكم يسجن من قبل؟

- لا، بل قل: أرأيت حاكم يصلي في الصفوف الخلفية من قبل؟

- ههه، ألست القائل بأن الحياة ينتزعها الأقوى.

- من أنت؟!

openkan.com

- شخص يعلم أنك تذوق مرارة الظلم وسعيد لرؤيتك تخبط في الجدران، لا تتعب نفسك، أنت هالك لا محالة

فهجمت عليه محكمًا قبضتي على رقبته:

- قل من أنت وإلا قتلتك.

فرد غير آبهًا:

- أنت لا تستطيع أن تقتل، لو كان بإمكانك ذلك ما خرجت كالأطفال من المسجد باكيًا تختبئ في الأزقة لساعات.

ضغطت بيدى رقبته أكثر:

- أتراقبني؟!

- أنت من يراقبني، وليس أنا.

فلكمته على وجهه حتى سال الدم من أنفه،

- لمَ تتبَّعتني إلى المسجد؟!

- مثلما تبعت أنت زوجتي لبيتها.

- ومن تكون زوجتك؟!

obeikan.com

باستهزاء:

- وهل ضحاياك كثر؟ أقصد تلك التي أغويتها بأن تذوق طعم الحياة على يديك فتركت زوجها وأطفالها من أجلك.

نزعتُ يدي عن رقبته قائلاً:

- لو كانت مكتفية بك.. لما نظرت إلى غيرك.

- مثل زوجتك تمامًا.. لم تكتفِ بك ايضًا هههههه.

أعدتُ قبضتي إلى رقبته من جديد، ماذا تقصد أيها الحقير؟!

- النساء متع الحياة، وزوجتك جميلة، أليس كذلك؟!

أعدتُ اللكمة إلى وجهه من جديد، فارتطم رأسه في الحائط، فأتبع قائلاً:

- أتذكر يوم أن جاءت زوجتي إلى ذلك البار اللعين ليلاً تتفقد وجودي، فبمجرد أن وقع بصرك عليها.. بتَّ تتصيد الفرص لتتبع طريق عودتي إلى المنزل، فعلت مثلك تمامًا، وأكثر، هههههه.

- أيها الـ... أنت من أغويت زوجتي، قسمًا لأذبحنك.

أعدت اللكمات إلى صدره وبطنه مرارًا..

فاستطرد قائلاً:

- ولم أكتفِ، حينما عرضَت عليها الهرب، رفضَت، فنالت ما نالته من عقاب تستحقه.

في صرخة:

- أنت من قتلتهما؟!

- أتنكر أنك تتمنى الموت الآن؟!

- أيها الوغد، سددت إليه لكمات مستمرة حتى سقط نزفًا على الأرض، ترنح جسدي إلى الخلف متقوقع في إحدى الزوايا أبكي بكاء من فقَدَ زوجته وابنته وكرامته. فخرج صوت ذلك المعتوه من بين طيات الأرض يقول بسخرية:

- سمعتك تردد وأنت ثمل في ذلك البار يومًا "أنا الله" فهل تبكي الألهة؟!

- فليُجِب من خلقك إذا كان موجودًا.

- إن لم يكن موجودًا فلتخلق أنت.

- كيف تكون مجرمًا وقاتلاً وسكيرًا وتدافع عن الإله، ألا تخاف عذابه أو ترجو رحمته، إن كنت مقتنعًا بوجوده لما فعلت.

فأردف بنبرة هادئة:

أتعلم، أرتكب الذنب فتزول لذاذة الفاحشة ويبقي بداخلي شخص يؤنب ويعاقب فأزداد خمرًا كي أخرسه فيزداد حمية، فأجوب الشوارع علَّ الهواء البارد يطفئه فيزداد أكثر وأكثر فلجأت إلى النوم فزادتني الوساوس همًّا وغمًّا، فلجأت إلى بابه فتوضأت وصليت واستغفرت وطمعت في التوبة فهدأت النيران وارتاح القلب، فإذا بحارسانِ يقرعان الباب فألقيا القبض عليَّ بتهمة قتل "سكّير" في ذلك البار، فرُحْت أصرخ وأولول: أنا لم أقتل، أنا برئ!

اليوم الذى ارتكبت فيه جريمة القتل هو اليوم الذي قررت فيه التوبة، هو اليوم الذى قررت فيه أن أكفَّ عن شرب الخمر، هو اليوم الذي سقت فيه إلى السجن بتهمة لم أرتكبها.

تُرى.. هل هذا عقاب الله لي أيضًا؟!

- وقفت أتأمل بصيص نور يتسرب من كوة تقترب من السقف أردد في همس:

وهل هذا عقاب الله لي أيضًا؟!

رفع رأسه عن الأرض، وهو يجفف سيل الدماء من فمه بطرف يديه قائلاً:

- أستطيع أن أخلصك مما أنت فيه.
- هل ستعترف بالجرم؟!
- نعم.
- وهل سيصدقونك؟
- لدي دليل.
- وما المقابل؟
- كل ثروتك.
- هل جننت؟! أستطيع أن أحملك على الاعتراف ببضع صفعات لا أكثر.
- اعتراف تحت التهديد، وآثار الضرب واضحة وليس هناك دليل.
- لك نصف الثروة.
- بل كلها.
- امنحني الوقت لأفكر.
- لا وقت لدي للتفكير.

obeikan.com

– لك ما شئت، ولكن ماذا ستفعل بالمال وأنت سجين؟!

– سأشتري السجن وأضعك فيه، نادِ الحارس.

وشوش الحارس ببضع كلمات في أذنه ثم التفت إلى قائلاً:

– سيحضر لك بضع أوراق للتنازل وسيستلمها منك بعد إثبات البراءة، اتفقنا.

فى همس:

– حقير!

(٤)

في شهر واحد تغير كل شيء بالكامل، اختفى البشر فجأة من كل الطرقات والدروب، عن يميني وعن يساري يدير العابرون رؤوسهم في زاوية عكس انفراج وجهي، صرت الخادم لذلك الجار ذي الأصول الألبانية وقد كنت أنا السيد، بتُّ ألمع غلاظته وأنظف سوآته مقابل بضع عملات ونوم ليلي بجوار بيض زاحف وفئران هائجة، فتكسرت أضلعي واشتد علي المرض، فألقي بي علي حافة الرصيف بعدما اتهمني ظلمًا وجورًا بالسرقة قائلاً إنه لن يبلغ الشرطة كرامةً لصداقة كانت بيننا.

فصارت الصخور مضجعي والتيمم طعامي فاقد العقل سكير دون خمر أحتسي الشفقة من غيم مُنعم، حتى حنَّ علي أحدهم فحملني إلى مأوى للعجزة والمشردين وعديمي الأهلية، فشعرت بالموت يتلصص بين أنياب المرض، فخلدت إلى الانطواء والانعزال فحار الأطباء في الدواء وانعدم الأمل في الشفاء.

ذات مساء ضاق صدري فتذرعت برؤية ولدي حجةً للخروج فتأهبت ممسكًا بعصا أتوكأ عليها فإذا أحدهم يدق على كتفي:

- ألن تصلي؟!

اعتلى وجهى ابتسامة حينما تذكرت ذلك الأبله مُدّعي الإيمان، كان ممثلاً بارعًا، أورى الحياة من مكبح الزند، فالتفت بهدوء إلى ذلك الشاب قائلاً:

- قل لي: إن كان من خلقنا يحبنا.. وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، فلما يؤلمنا؟!

فأمسك بيدي قائلاً:

- تعالَ، سأروي لك قصة من كان يحل ضيفًا على هذا السرير قبلك.

فأنصت مذعنًا:

آتي إلى هذا المكان وعمره أحد عشر عامًا بعدما أصيبت والدته بمرض لا شفاء منه وكان مجهول النسب ضريرًا، أخبرته أمه قبل وفاتها أن أباه كان تاجرًا ثريًّا ولكنه رفض الاعتراف بابن حصل على وثيقة الحياة بطريق غير شرعي، كان يتحسس خطوات الأرض كل يوم من أجل أن يصل إلى دكان أبيه، قال لي يومًا:

"كنت أطلب منه الإحسان عل الشفقة تصيب قلبه، فيلمس شعري رأفة ورحمة فأقبل يديه"

كان الأمل ما زال منحصرًا ما بين الطين والشفق عندما قرر أن يتبع ظلاله للمرة الأخيرة، كان صوت أبيه هو عائلته الوحيدة في ذلك الظلام الشاسع، اقترب منه كعادته ومدَّ يديه، طار قلبي فرحًا وأنا أرقبه عن بعد، لم يدفعه بعيدًا كعادته أو يقذفه بحمم السباب اللعنات، فتهلل وجهه مشرقًا عندما التحمت أصابعه مع يد والده المحملة بالنقود دون قصد، فأدبر يشكر ويحمد حتى أمسك التاجر بيديه فجأةً، ونزع منها ما أعطاه، لا أعلم إن كان قد سبه من جديد أم لا.

ثم استرسل يقول وعيناه مغرقة بالبكاء:

ما لم أنسَه أبدًا هو صورة جسده يرتفع في السماء من جراء الاصطدام وأشلاءه المبعثرة وتلك الذراع ما زالت ممسكة بقبضة اليد على لمسة لأبيه كانت هي كل ما يتمناه في هذا العالم.

أنهى حديثه وأنا ما زلت في ريعان دهشتي، حاولت بلع ريقي وآثار هزة جسدية تعلو شفتيَّ، ثم اعتدل في موضعه وهو يردد قوله:

"أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير"

فأمسكت بيديه قائلاً:

- أرني الطريق إلى المسجد.

مرت السنون، لم أبحث فيها عن صف خلفي أو أمامي، اكتفيت أن أعفر وجهي بالسجود طمعًا في قبول التوبة، في رواق المسجد ما زالت حلقات الدراسة مستمرة، هذه المرة هناك ضيف جديد انضم إليها، كان أصغر الدارسين سنًّا وأعلاهم حنكة وفطنة، وكان كثيرًا ما يطرح الأسئلة فيجيب الشيخ بكل ثقة، كنت سعيدًا بحركات الكر والفر بينهما، ولمَ لا، فأحدهما من صلبي والآخر من صلب صلبي.

- لحظات وإذا موكبٌ يعترض طريق المصلين بهياكل جسدية تحمل هراوات تفرق الجموع وتحني الأعناق في حين جحظت أعين البعض وتلصصت الأفواه الفاغرة على العربات الفارهة وما يرتديه ذلك الضيف المنمق مما غلا ثمنه وعز ارتداؤه، فأفسح الجميع الطريق للصف الأمامي دون مقاومة تذكر، فكانت كلمات الترحيب والتبجيل في استقبال بصمات القبل على كتفيه، إلا أنه قرر أن يغير مساره حيث الصفوف الخلفية الآمنة فالتقت أعيننا فتبادلت وجوهنا ابتسامة ساخرة.

مسكين، ذلك الأبله.

كان ينوي شراء حريته.

قتله السجان، فحفل كلاهما بموكب.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

صرنا ثلاثة حمقى

«فقر عابر»

كان يرتدي سروالاً يماثل في الاتساع حجمه مرتين، وفي العرض التقريبي ما يتعدى حجم حذائه المفرط التهوية، استجار من السقوط بحبلٍ شدَّ وثاقه بإحكام كي لا ينفلت عن أقمشة كتانية أضاعت الخروق نرجسيتها حتى إنك لم تعد تستطيع تمييز إن كانت لرجُل أم لامرأة.

" مشهد "

في الطابق الخامس لمبنى المدرسة التي أعمل بها، كان متنفسي الوحيد شرفة تطل على الشارع الرئيس حيث بإمكانك أن ترى طلابًا يعتلون السور الخلفي هربًا من المدرسة، وآخر يسرق كيسًا من المقرمشات من البائع دون أن يدري، وآخر غير مسار شعره بأكمله إلى جانب واحد مضيفًا إليه لمعة من الصودا والصابون الجل الشعبي» في انتظار طابور من الفتيات في أثناء الفسحة المدرسية، يغازلهن جميعًا بنظرة أفقدتها المسافات اتجاهها، فأصابت قلوبهن جميعًا.

opelkan.com

" الواحدة بعد الظهر "

لم ألحظ أنه كان دائم الحديث إلى نفسه إلا عندما تهكّم عليه أحد الطلبة الفارين من المدرسة بحركات بهلوانية تفتقد إلى الحياء، فأطرق برأسه إلى الأرض مستمرًا في لغة الهمهمة، وشظايا الدخان تتصاعد من التقاء نعل أرضي وطين يشتعل.

" ملامح شارع "

كان فتى أسمر، يرتدي ملابس مدرسية تخالها كانت تستخدم في التنظيف المنزلي، يزينها بقع من الزيت والصلصة فأحالته إلى إناء طعام فاحت رائحته، أخفى معالم براءته بضع تجاعيد سببتها آلة حادة حفرت بوجهه أخاديد من الحقد والغل لكل ما يعلوه من شبر إلى أشبار.

" عليك أبكي "

شيء من الغرور أصاب نفسه عندما أدرك أن باستطاعته استفزاز رجل بالغ فتمادى في غيه، وبحركات دائرية سريعة حاول جذب سراويل الرجل إلى أسفل، وقد انحنى على عقدة الحبل بكلتا يديه خوفًا من أن تنفلت فيهتك عرضه.

وفي حركة دفاعية غير متوقعة، دفع بالطفل إلى الخلف فارتطم بسيارة أردته قتيلاً.

operikan.com

" مَنْ المعتوه؟!"

في أقل من ثانيتين غزا الطريق سيل من السباب واللعنات، ورجال شدت أذيالهم إلى فيهم، كي لا تعيق رباعيتهم عن الجري، وأصوات الصراخ تتعالى: " معتوه، قتل طفل".

للحظات وقف مشدوهًا من هول الصدمة ثم تراجع بضع خطوات إلى أن التصق بسور المدرسة وعيناه ما زالتا عالقتين بدماء تسيل علي الأرض.

" ضحية "

صرت أصيح من الأعلى وأصوات المطارق تدق عظامه "اتركوه لم يفعل شيئًا" ، تحول صوتي إلى مئذنة اعتلى آذانها أصم، وتحولت أفواههم إلى نباح على ضعيف لا حول له ولا قوة.

ركضت بكل قوتي أختصر درجات السلم في اتجاه معمعة من طرف واحد وزفير الشهيق يلهث، شرعت بكلتا يدي أفرق الحشود، فأصابتني ضربة من الخلف على مؤخرة رأسي، فسقطت جثة هامدة فوق ميت.

●●●

obeikan.com

الرجل اليوسفي

من أعطاك حق النبوة، تعز من تشاء وتذل من تشاء، شديد الشبه أنت برجل الكهوف الأول عندما كان لا يفرق بين الطريد وزوجته. لن أسير خلف القطيع يا سيد الرجال العشرة، كلما اقتربت منك أنثى ادعيت البلادة، وكلما ابتعدت عنك ادعيت النجاة، يا رجلاً بت أخاله تقيًا من الأتقياء، أدركت الآن أنك زرادشتي عظيم، لا تدين إلا لمبادئك.

لكم ادعيت أنك تهوى حريتك، أكاد أجزم أنك ما خلقت إلا لتثبت أن المرأة مخلوق ناقص ورأسك منخفض يقبل أناملها.

هل تخاف الحب؟! لمَ أسمع صراخك دائمًا؟! أنا لست مخطئًا، هن فعلاً كاذبات، أبشرك فذلك المهدئ لن يستمر طويلاً، قريبًا ستصاب بأعراض الخفقان تعصف بآلهتك يا سيد المراوغة.

●●●

كانت كسوسنة لامعة ينحني بهاؤها للذبول يومًا بعد يوم، في كل مرة كنت أسألها عن سبب نحولها واصفرار وجهها كانت تتعلل بالأنيميا، وما تفعله المعدة بالنساء من ذوات الحساسية المفرطة، لطالما سمعتها تقول (في معدتي كهرباء تكفي لإنارة فلسطين).

في مراحلها الأخيرة تكورت على فراش المرض وقد فقدت ثلاثة أرباع وزنها وكان كل ما يتغذى عليه الربع المتبقي أنبوبًا به بضع قطرات من ملح وماء وحديد لزوم الحفاظ على الهيكل العظمى من التحلل.

أزحت خصلات شعرها النائمة فوق عينيها، فإذا عينان محترقتان كالجمر كساهما رماد الاحتراق من كل جانب حتى طغى على حمرة شفتيها بشقوق خشنة كقنب تحللت أليافه.

شَعرت بيدى تتلمسها فجاهدت بحركتها البطيئة لتحتضنها ثم ضمتها إلى صدرها، وعادت إلى

موتها من جديد. ربما اشتاقت الروح لمن يؤنس وحشتها، وربما أقنعتها غياهب الإدراك أنني هو!

التمست حوائط منزلها ودفاتر أوراقها وحساباتها على صفحات التواصل الاجتماعي أبحث عن دليل يبرئ ظني منها، إن لم يكن يقينًا أنها عاشقة من الدرجة الأولى، وعبثًا باءت كل محاولاتي بالفشل.

●●●

فى البوح وحده تكتمل العلاقة بين الخيال والواقع، فكم من بوح اعترف بأنَّ ما كنا نتألم من أجله لم يكن يساوي كل ذلك الضجر والعته، وربما كان وهمًا.

حاولت بكل ما أقسمت من دساتير وأعراف الصداقة أن أسمع في صوت زفيرها ولو كلمة واحدة تشير إلى من صعقها بالحب قهرًا، فخاب ظني من جديد.

في أحد الأيام وصل إليَّ خطاب من كاتب مرموق يخبرني بأنه لم يستطع الاتصال بصديقتي العزيزة لظروف مرضها، وعلي أن أخبرها أنه تمت الموافقة على النص الذى قدمته نيابة عن أحد الشعراء للنشر في المجلة.

حصلت على عنوان ذلك الشاعر وقررت أن أخبره بالقرار وأن أقدم له اعتذارًا يليق بمرضها، فأشار أحدهم إليَّ بغرفة مغلقة في نهاية البهو قائلاً "في هذا الأستوديو".

أنهكني الوقوف على حذاء يرتفع عن الأرض بعمود طوله 7 سنتيمتر تقريبًا، ولم تفلح محاولات السير ذهابًا وإيابًا لتخفيف الألم، فكنت أشبه بمن ينتظر مولودًا جديدًا، ترافقني دعوات المارة بأن أكون أشد صبرًا، لعل الفرج قريب.

وبمجرد أن سمعت صوت الباب يفتح فجأة، إذا...

"كيلان لوتز"... لا، ليس هو، بل أجمل.

"روشان"... لا، ولا هذا النوع من الجمال.

أي نوع من الإشعاعات يجعلك خارج دائرة الزمان والمكان، فلا تدرك إن كنت أمام جمال يوسف أم طغيان فرعون؟!

أي نوع من الذهول يجعلك تتسمر كغراب موحش من غربان الأرض أمام هذا الجمال العذري في خِدره.

حاولت استجماع كل ما تبقى لدي من كبرياء، خفضت رأسي إلى الأرض، سرت بضع خطوات نحوه ومددت يدي بخطاب الموافقة:

- "هذه لك".

- "صوت ضحكة هادئة" من أنتِ؟

لا أعلم هل استدرت مسرعة خوفًا من أن تسقط ركبتي متعللة بالارتفاع، أم أيقنت بأنني على وشك

استضافة للمحاليل المركبة!

●●●

أمسكتُ بيديها الباردتين وقررت أن أقص عليها ما حدث، هالني كيف انفرجت أساريرها وتوهج وجهها كالمصباح وتشققت شفتاها أخيرًا بابتسامة تشبه تعاريج البكاء.

- "أكان هو؟!" سألتها بهدوء...

قررت أن أستغل لحظات صحوها، لربما تخلص ذلك الجسد المنهك مما يثقله، فلم أحظ إلا بإيماءة صغيرة استغلت نصف طاقتها، فاستسلمت لأحضان الوسادة من جديد.

كانت يداها أنبوبًا أوصل رجفتها إلى قلبي، ونصف عقلي ينبح: "لمَ لم أقل له من أنا؟". والنصف الآخر يصرخ: "لا تقتربي".

●●●

في الحفل السنوي لتكريم الأدباء وذوي الصيت الرفيع، كان المشهد السائد أكتافًا بعضها يناطح بعضًا من أجل التقاط صورة مع أديب كبير أو شاعر أو مخرج سينمائي، إلا أن اللافت في القاعة تزاحم النساء بألوان الطيف حول شرفة رجل واحد، نال جسده من التوقيعات مالم ينله صائدي نوبل من قبل، وهو يتخلص من محاولات شد وجذب الأكمام بعبارات لطيفة تكشف أكثر مما تغطي.

ثوانٍ وبدأ الحفل بديباجات معتادة وقائمة ورقية من عشر صفحات شكر للراعي والرئيس والمنظم والمبدع الخلاق كعادتنا في تأليه من نوليهم المناصب دون قصد، وكعادة الجمهور في مثل هذه الاوقات يكون أفضل وقت للقيلولة.

كانت الجوائز عبارة عن تمثال من البرونز يبلغ تكلفته مئة جنيهٍ وشهادات تقدير من فئة الخمسين جنيهًا، وكان التصفيق تزدادُ حدته كلما اعتلَت التنورات القصيرة المنصة، أو قبّل رئيسنا الهمام وجهًا ناعمًا لنثبت للعالم أننا مجتمع لا يدّعي الحريات ولكن يمارسها علنًا.

كأن كوبًا من الشاي الساخن سرَى في أوصالي حينما ذكر اسمه يستدعى لنيل الجائزة، ولربما كان تشابه أسماء، ولكن مشهد القبلات الأنثوية حسم الموقف.. نعم هو.

اعتلى المنصة كنسيم هبَّ على منطقة استوائية، وزفرات النساء من سيدات المجتمع الراقي وقد ارتفعت أيديهن فوق صدورهن، تصحب خطواته الرشيقة كلما صعد.

كانت الكاميرات تخطف جميع زواياه من إخمص القدمين حتى منبت الشعر كأنك في مشهد تعانق فيه النور الرباني مع نور من صنيع البشر.

أمسك المدير الهمام بالميكروفون (فمثل تلك الفرص دعاية لا تعوض) وطلب من الضيف النوراني أن يبارك الحفل بأحرف من شعره النزاري، فاستيقظ الجميع على أصوات التصفيق الحادة كأن قائدًا عربيًا على وشك إعلان تحرير فلسطين والجولان والضفة الغربية دفعة واحدة.

●●●

كان له صوت جهوري رخيم ينساب إلى مسامعك مخترقًا ذلك الحجاب الفاصل بين العقل والقلب، وفي ربكة الأحرف خيل إليَّ أن عينيه مصوبة إلى بالكامل، فالتفت بمنة ويسرة عله أخطأ النظرة، فإذا أعينهن مصوبة بنيران الغيرة نحوي ولسان حالهن يقول "ما الجميل فيها؟".

انزلقت رجلاي متصلبتين كعود خيزران على طرف مدبب يصدر أصواتًا كدق على رؤوس مسامير نائمة، أحدثت جلبة بصوت هرولتي، فالتف الذيل الطويل حول العمود المعدني للحذاء محاولاً الاختباء، فجذب ما جذبه وشد ما شده، وإذا كعب يترفع عن ملامسة الأرض بالارتفاع، يسقطني في مواجهة معها وجهًا لوجه، "منها وإليها نعود".

كأنك في حرم الأُبِرا يعزف موزارت لحنه الشهير "قداس الموت" وأغبياء بالخلف يقرعون الطبول، تهاطلت كلمات اللعن والسباب وأنا أحاول جمع ما تبقى من كبريائي المصون، متوسلة إلى اللّه ألا يتذكر من أنا.

يد واحدة امتدت إلي، لم أحفل إن كانت لرجل أم لامرأة، المهم أنها ستنتشل أنفي من روائح الأحذية وتعيدني إلى مطاف العطور الباريسية من جديد.

"سيدتي، هل أنتِ بخير؟".

●●●

لا أعلم متى ترك المنصة وهرول نحوي، وقد تحولت كل النظرات في القاعة إلى أصوات همهمة، وإن شئت قل حسرة، كان كفارسٍ نبيلٍ يلتقط يد مصارعه لمصافحته بعد انتهاء كل المناورات المتاحة من الخيبة.

حتى تلك الأوتار الهادئة غارت وتحولت إلى نوع دراماتيكي لامرأة تتلوى طمعًا في أن يداعب خصرها برقصة تسلبه كل مزامير عقله إلى غير عودة، فسار إليها مستسلمًا، وتركني وحيدة وسط الميدان ودماء خجلي تتصبب وأعين الشامتين تتلذذ بالطعم.

في طريق الخروج كطائر جنة ينتحب، اكتشفت أن الطيور لا تفقه المحاليل المركبة، ولا تعترف بفحيح الموت على أسرة العشاق، في الحب ترقص وفي الذبح ترقص، فوقفت على منابت قدمي العارية أستبيح السكون بالفوضى، والألم بالجنون، والحركة بالدوران، أحطم هياكل الشمع الساجدة للأعناق الملتوية، ها هي الدائرة تتسع، تلتهم انحناءاتي كل خبيث في طريقها حتى توقف الجميع عن الحركة، فتشدقت الأعناق وفغرت الأفواه، وتبلدت الأعين، وما زلت على هذه الحالة من الرقص حتى أقسم أحدهم أن قدمي لا تلمس الأرض.

أتذكر جيدًا أقدامي العارية وهي في طريقها إلى الخروج، وحذائي المعلق بأطراف أصابعي ورقبتي التي أهملت التصفيق الحاد ملقية بنظرة انتصار على الجميع، فإذ هو يداعب خصلات شعره أمام المرآة وقد انصرف الجميع عنه.

●●●

obeikan.com

مؤخرة الكيمكس

(آخر ما تعذر عليك فهمه)

(١)

لا أعلم لمَ يهاب الأحياء تشريح جثث موتاهم، لمَ يخافون تشويه جسد مزقه العفن في حرب ولد بها خطيئة دون أن يدري، أم أن قدسية الموت فاقت حق الحياة.

أتذكر جيدًا وجه جارتنا أم طه حين رفعت الغطاء الأبيض عن وجه أمي المتصدع بالكامل، فلطمت بشهقة ارتمت على أثرها فوق أقدام ذي النظارة المقعرة ممسكة بأطراف البالطو الأصفر تستغيث به:

"والنبي يا أخويا ماتشرحش جثتها دي غلبانة".

قذفها، فهوت على الأرض، فأعادت كرتها تقبل حذائه، فما كان منه إلا أن أسقطها بهجمة مرتدة أصابتها بكسر في عظمة الأنف.

تأملت المشهد بصمت، لم أكن كالأطفال أهوى الصراخ أو الضجيج، كنت أصغر مَن حمل سلاحًا على وجه الأرض، كان

عمري قد قارب خمس سنوات حينما ضمت أمي أحشائي بقماط من الصوف الخشن يتغلله ثلاث كتل معدنية، كانت حركتي سهلة وميسرة بين نقاط التفتيش، لم يفكر أحدهم يوماً أن يمد يديه نحو جسدي المدجج يتفحصه، فبمجرد أن أصل إلى ذلك البهو.. يفض أبي سرته ويبدأ بعرض سلعته "سلاح الأكابر" أو هكذا كان يطلق عليه.

وكان شكري بك رجلاً ذا حس فكاهي غير مرح، فلا تكاد جلسة البيع والشراء تنتهي.. حتى يدعونا إلى مائدة ضخمة من النكات المفجعة، قال:

" يحكى أن السودان حرمت معسل التفاح وحرمت مصر تجارة الأسلحة، فالتقى مصري وسوداني على الحدود يبدلان هذا بذاك، وبعد انتهاء المقايضة التفت المصري إلى السوداني متهكمًا:

"ما قدرتوش على الأسلحة وقدرتوا على المعسل؟!".

فرد السوداني:

"يا زول، الاتنين بيمصوا الدم، بس التانية بتكلف الحكومة أكتر، ولما الزول المسطول ما يلقاها براسه بيضرب وبيكسر كل حاجة، وبيدوروا تجار السلاح، همَّ يبيعوا والحكومة تداري، اكنس، قش، امسح".

لم أفهم، ولم يفهم أبي، ولم تفهم تلك الخادمة التي تسقيه الماء، ولا ذلك الحارس الواقف مُزَنهِرًا بين كتفيه، ولا ذلك الكلب اللاهث فوق ذراعيه، وجميعهم ضحكوا.

ذات يوم اقتحم ثلاثة ذئاب مسكننا، أيقظني أحدهم بنصل سكين وآخر اقتاد أمي بطبنجة وهو يلوح بأن يفجر رأسها إذا لم يسدد المدعو أبي الدين، وحدث ما حدث.

"جميع الرجال خونة إلى أن يثبت العكس"

(٢)

لم تك تلك هي المرة الأولى التي أتأخر فيها عن العمل، مقاعد الانتظار خاوية بعدما انصرف الجميع إلى أعمالهم في الوقت المحدد، لم يبق سوى أنا وعمود صارم من التوقيت اعتلاه شيب الغبار وتلك المرأة الثرثارة، لم تسألني يومًا عن اسمي أو عملي أو إلى أي محطة ستكون رحلتي، ولكن بمجرد أن تلمح قدميَّ تلهث خلف العربات المسرعة دون جدوى.. تنفرج أساريرها ملقية دعوة لقضاء وقت الانتظار في جوارها.

أخرجت من جيبها علبة محشوة بلفافات من ورق أخضر داكن اللون، التقطت بأطراف الأصابع إحداها، لعقت طرفها جيدًا، ولكن رعشة بيديها حالت دونما الإمساك بالطرف الآخر،

فتطايرت الأوراق كالفتات، فانقضت بشراهة تلعق ما نجا من بين أنياب الهواء على كفها وملابسها وخشب المقعد انتهاء بالأرض.

استجمعت قواها، شدت من مؤخرة القرطاس مايكفي لملء رئتيها بعفن الأبخرة، ثم استدارت إلى قائلة:

- أنا سامعة صوت القطر جاي.

الهدوء الحذر كان رفيقنا الثالث، تجولت بعيني في اتجاهات شريط السكك الحديدية يمينًا ويسارًا، لا أثر سوى بعض الأقدام تعبر الشريط عدوًا.

- الحشيش اللي بتشربيه مغشوش.

دوت ضحكتها

- تاخدي باك؟

- أنا ما بادخّنش.

أخرجت من فمها دفعات من الدخان.

- أمال عرفتِ إنه حشيش منين؟

- القطر وصل فعلاً، مش هتركبي؟

- لا، أشوفك بكرة.

obeikan.com

- ههه، دا لو اتأخّرت.

في الداخل اشتد لهيب الحرارة على المقاعد بعدما غادرتها الألواح تاركة بقايا مواسير حديدية صدئة، تململ أحدهم من فرط صغره متدحرجًا بين أكوام اللحم المتكدسة، مد يديه الناعمتين وبهدوء تام وضع ما تحصل عليه في كيس من القماش معلق برقبته.

تتبعت خطواته وهو يتجه صوبي و نظرات المسافرين تدمع بشفقة على عاهته، هذا يتلمس خصلات شعره بحنان أبوي، وهذا يبحث عن محفظته ليمنحه النقود فلم يجدها، فصرخ بعلو صوته، محفظتي، أين محفظتي؟

ووسط ذهول الجميع وتخبط الأكف وتحسس الجيوب بحجة التفتيش الفجائي، ألقى بالمحفظة أرضًا، فانسابت كالماء الرقراق بين أوعيتهم حتى استقرت كرهًا أمام هيئتي الذكورية.

شعر قصير، بنطال من الجينز الأزرق ذي السحجات العشوائية، قميص من الكاروهات الأحمر طارت بعض أزراره في أثناء مشاجرة عمل، فاضطررت إلى ربط نهايته حول مؤخرتي، وحذاء رياضي من نوع "أبيدس" ما عدت أتذكر لونه الحقيقي.

اصطدمت بركبتي، فانحنيت لالتقاطها فإذا قبضة تعتصر رقبتي.

- مسكتك يا حرامي.

ياقة القميص في يديه، وقد انفصلت بمحض إرادتها عن الحزب المتهتك، فانفجرت ضحكات السخرية في كل مكان، اشتطت غضبًا فاستدرت إليه بلكمة قوية، فإذا هو يلتقط يدي من الهواء بقوة لتلتقي أعيننا لأول مرة.

بدهشة:

- أنتِ بنت؟!

بحثت عن صوتي فلم أجده، ربما هرب مع الياقة ولم يعد، أصبت بإحراج شديد وأنا التي لم تكترث يومًا لفقرها وهو الكامل بأناقته وابتسامة عينيه، نبضات قلبي تتزايد، تفحص بعينيه وأنفه هيئتي باستهزاء، أيقظني الكبرياء فصرخت في وجهه:

- وِانت ما لك؟!

أخرج بضع جنيهات من جيبه:

- خدي وما تعمليش كدا تاني.

ثم انصرف وأنا لا أعلم أيًّا منا كان السارق.

تعقبت أثره، يقطن بشقة بأحد أحياء القاهرة الراقية، تطلعت إلى الأعلى، لافتة تمكنت من فك شفراتها "لجنة حقوق الإنسان بنقابة المحامين"، دقائق ونظري معلق في الهواء، أصيبت كل مصطلحاتي للغة بسكتة دماغية، حد المسافة الفاصل بيننا يشبه الفارق بين قصر قامتي وطلاسم أبجديته الدعائية، كيف سأصل إليك وأقدامي معلقة بالوحل؟

(٣)

في الطريق إلى العمل تباطأت خطواتي، قدم تتقدم وقدم تتأخر، ترى ما سيكون عذري عن التأخير هذه المرة؟! أسرعت فشق الحذاء من جميع جوانبه، فاضطررت إلى استكمال العدو حافية القدمين، لم يعد يفصلني عن المحل سوى خواره المتزامن مع صرخات قدمي الملتهبة.

كانت الملابس ملقاة هنا وهناك وبعضها قد طار في الهواء هربًا إثر قوة دفع عمودية، تفاجأ بهيئتي المذرية تفوح على الباب، أسقط نظراته المشمئزة إلى أن وصل إلى القاع،

فأسرعت قائلة:

"معلش يا معلم طولان؛ جذمتي اتسرقت وأنا... "

فأصدر (هـه!) تهكمية ولسان حاله يقول: "ومن سيسرق حذاءك العفن؟!".

أشار إلى أن أتبعه إلى تلك الغرفة المغلقة والعاملات خلفي يتغامزن ويتهامسن.

انحدرت السلالم إلى الطابق السفلي، غرفة مربعة، مواد كيميائية وأعشاب تناوبت تبعًا لقدرتها على جذب الزبون من الأعلى إلى الأسفل، سوق ترويجية لجميع أطياف الشعب بدءًا بالحشيش المختلط بروث الحمير ولبان الدكر والحنة وانتهاءً بالاستكازي.

كيميائي مخضرم، يكمن سر الصنعة في جيب بنطاله الأيسر، دفتر بطول إصبعه الوسطى تتصدر مقدمته عبارة استهلالية "إن اغتُصب الشحم فلتنزع الجلد"، يحوي الوصفات بالمليجرام، خطأ واحد في حساب النسب بالزيادة أو النقصان يفقده سمعته الماسية لا محالة، حصن متوارث يسلم بأسراره من يد إلى يد، ولعنة تسحق من يغتصبها عنوة.

– منحني "شوال" مليء عن آخره بأوراق شجر مجففة ثم انصرف، كانت وظيفتي تتلخص في تحويلها إلى أوراق ولكن من نوع آخر، طست كبير أفرغت فيه كمية من الورق، شددت على أطرافه جيدًا بقماش من الكتان، لقنت سطحه المشدود بالعصا ضربًا حتى تحول باطنه إلى مسحوق من البودر الناعم، أفرغته داخل مكبس حديدي وتحت قويّ الضغط تحول إلى قطعة متماسكة من الحشيش النقي عالي الجودة والسعر.

كان يزن كل قطعة يتحصل عليها بميزان حساس يتناسب طرديًّا مع كمية الأوراق، ذات مساء صرخ في وجهي، هناك قطعة ضمن ثلاثين قطعة نقصت، جرام بأكمله، أين خبأتها؟!

اقترب مني ورائحة الخمر تفوح من كرشه الثمل.

– "أنا مضطر إلى أن أدور عليها بنفسي".

وبردة فعل عنيفة حملت الطست النحاسي مصوبة إياه لجمجمته اللعينة، فصار يزأر مترنحًا، تشبث بقميصي، فناولته ضربة أخري ثم لُذت بالفرار.

سألتني إحداهن حينما سقطت فزعًا على أرضية المحل وأنفاسي تضطرم.

- "إنتو اتخانقتو على تمن الليلة دي ولا إيه؟".

بصقت في وجهها ثم سحبت قطعة من الملابس مسرعة أواري بها سوأتي، ولم أعلم حينها أن ثمن تلك القطعة قد تعدى ما أتحصل عليه ثلاثة أشهر كاملة.

عامان ونصف أسدد دين أبي بين حثالة المراحيض وعبيد الدخان الأزرق، تذرعت بأنوثتي فلطمني على وجهي معددًا مايحتاج لشرائه من مأكل وملبس ومشرب، ومزاج.

لم يكن سني قد تعدى الخامسة عشرة، أهداني أبي كرَهْن دَينٍ إلى أحد الزبائن عله بذلك يؤجل تسديد مستحقات الكيف، فراغ إلى يعلمني أصول المهنة والترويج مستغلاً وديعته أقصى استفادة، ومرت الأيام وانعدم الأمل في رد المال ودون قصد تحولت إلى تعويض مستحق، حتى إذا قضى الدين خيرت بين أمرين:

إتمام ما بدأت، أو صيد لكلاب الشوارع.

(٤)

في صباح اليوم التالي زينت الحذاء على طريقة رقع الشطرنج مضيفة على جانبيه شريطين من الفيونكات الوردية، خلعت قميص الصبية وارتديت تلك التي دفعت ثمنها تقسيطًا على ستة أشهر

كاملة، منذ ذلك الحين وقلبي يتمزق كلما رأيتها على الحائط، احتفظت بها كتحفة فنية معلقة داخل كيس من البلاستيك، كان نزاعًا عنيفًا قد احتدم بين عقلي وقلبي حينما رأيت جسدي لأول مرة ينعم داخل خيوط الحرير.

أيعقل.. هل هذه أنا؟! أبضعة أمتار من القماش تغير تاريخك وجغرافيتك في لحظة؟

ولكن سعة جيبي لا تتحمل سعة الحاجة، إن رفعت رأسي اليوم تفاخرًا، فماذا أفعل في الغد؟ فضلاً عن أنني لا أستطيع مجاراتهن في مساحيق التجميل ونبرة الصوت الآسرة وحركات قدورهن المتمايلة.

وما المشكلة؟! سأرتديه ليوم واحد فقط، سأريهم جميعًا أن باستطاعتي أن أكون مثلهن، فمظهري الذي يدل على الفقر ما هو إلا سمة من سمات البساطة، وأنا من دعاة التقشف.

نظرت في الساعة، لم اكترث لبلاهة العقارب عندما أطلقت صافرة إنذار مدوية تعلن التهام ثاني أكسيد الكربون المتأجج في صدري لساعة أخرى من الانتظار، كم طال الوقت!

أمام المرآة كل شيء يبدو على ما يرام، وعلى السلالم الخشبية اكتملت أناقتي على قدر لا بأس به.

- في محطة القطار طربت أذناي لنوع آخر من الصافرات:

- "إيه يا عم الشياكة دي؟!".

تزايدت ضربات قلبي واندفع الدم في عروقي يداعبه نسيم الصباح البارد وظني يردد:

- "حتمًا سأعجبه!".

قاطعني صوتها قائلاً:

"كنت عارفة إنك هتتأخري النهار دا، بس إيه الحلاوة دي؟".

في مثل تلك الأمور يحتاج النسوة إلى بعضهن، وفي هذه اللحظة بالذات اكتشفت أنه لا قريبات ولا صديقات لدي، دنوت منها قليلاً وهمست في أذنيها:

- هو أنا جميلة؟
- البنت ما تسألش السؤال ده إلا لما يبقي في حد عاجبها.
- بارتباك، ومين اللي هيبص لواحدة زيي؟!
- ولاد الحلال كتير.
- هو انتِ تعليمك وصل لحد فين؟
- أنا يا ستي آداب.

obeikan.com

- آداب آداب، ولا آداب حاجة تانية.

- لأ الأولى إن شاء الله.

- ما تعرفيش بتوع حقوق الإنسان دول بيشتغلوا ايه؟

- مصلحة، أي حاجة راشقين فيها.

- انتي مقضية نص حياتك في المحطة؟

- ما هو شغلي اني أتفرج على الناس وبعدين أرفع تقرير للجريدة إن الأمن مستتب والحياة بقى لونها بمبي وانا جنبك وانتِ جنبي، مع صورتين للناس وهي مبسوطة.

- على كدا إنتِ حد مهم بقى؟

- مفيش حد مش مهم في مصر، طول ما في أسياد بتحكم.. إنتِ مهمة بالنسبة لهم، أمال هيتنططوا على مين، ويلبسوا تهم القتل والرشوة والانسياب لمين؟! الواحد من دول يطلع على التلفزيون ولا الأمباشي عبعال في زمانه، ويقول لك: "مسكنا الطرف التالت". واحنا قاعدين زي الخرفان مستنيين الدور.

- دا انتِ معبيّة بقى.

- آخر مرة انفجرت استغنوا عن خدماتي، واضطريت أقبل الشغل في جريدة تحت السلم علشان لقمة العيش، علموني الأدب يعني.
- لا، دا انتِ دماغ تانية، أقوم ألحق المصلحة.
- هههه ما تنسيش.. الراجل يحب الست اللي مناخيرها فوق.
- ومنكم نستفيد.

في القطار تأملت الوجوه حولي، بدت جميعًا كأنها طبعت بنسخة كربون واحدة، هل اخطأ القدر وألقى به في عربة أخرى، القطار به سبع مركبات، كيف لأنفي أن يضل رائحته بين المئات، وضاع كل جهدي سدى؟!

توقف القطار بعد رحلة مملة من الشكوك والهواجس، نزلت على الرصيف، فإذا به ينزلق من إحدى العربات محتجزًا بين يديه "عصفورةً من عالم النساء" امرأة حقيقية، كان يدفع عنها الناس من كل ناحية خوفًا أن تصيبها أنفاسهم بالأذى، التحمَت به كفراشة حطت على مبسم بائع ورد، عصَر الغل أعصابي، فقررت أن أرد له الصاع صاعين هذه المرة، اندفعت بكل قوتي في الاتجاه المعاكس لهما مرتطمة بكتفه غارزة أظافري بجلد حقيبته،

فسقطت على الأرض مصدرة صوت كانفجار سيارة.

لم ينتبه حتى لما تحطم بداخلها، جذبها من يديها واختفى وسط الزحام.

(٥)

على أبواب المحل اصطفت قوة بأكملها من الدبابات والمدرعات، وقد ألقي القبض على الجميع بعدما عثروا على جثة المعلم طولان مذبوحًا، لا يوجد أثر لاقتحام المحل من أي جهة، جميع المعروضات بكامل أناقتها، أسفر التفتيش عن غرفة أرضية تحتوي على مواد محظورة لتصنيع الخمور وكبس الحشيش وأقراص مخدرة من النوع المستورد، كل شيء صحيح سالم لم ينقص من وجوده شيئًا، إلا ذلك الدفتر.

أسرعت إلى المعلم شكري أطلب منه العون، تذكّر وجهي من اللمحة الأولى جملة، ثم قامتي ونهديَّ وشعري تفصيلاً.

عادت بي الذاكرة عشر سنوات إلى الوراء، في إحدى جلسات البيع طلب الحارس من أبي أن يرافقه إلى حيث استلام البضاعة، لم يخفَ عليه نظرات شكري الخاطفة لزوجته، تحرك بقدميه على مضض، استغل انشغالي بقضم ما لذ وطاب في طبق فاكهة ممدد على الطاولة، دعاها للاقتراب فأبت، قفز من مقعده

ليلتصق بجلبابها، قاومته بقدر المستطاع، وبرد فعل إرادي طار السكين مخترقًا أصابعه، ولولا هرولة الخدم إثر (آاااه) مدفعية.. لكنت نسيًّا منسيًّا.

حينما استحالت عليه.. قرر شراءها بثمن مدفوع مقدمًا، إسقاط الدين، فلا عيب أن تبيع شرفك وكرامتك ولو لليلة واحدة، وما فائدة أن ترفع أنفك إلى السماء وجسدك عاريًا إلا من الفقر، لو استطاع أن يبيعها عضوًا عضوًا مفككة لفعل.

لقن جسدها درسًا عن التضحية من أجل الزوج لن تنساه، لم يحصل عليها إلا جثة مشوهة، استلمها التاجر خرقة ممزقة حاول إهدار كبريائها بكل ما أوتي من قوة، ما لا يدركه الرجال حقًا أن الرجولة لا تباع ولا تشترى. ولأنه لم يعتد الانتكاسات.. فجَّرَ رأسها معلنًا انتصاره.

- واللّه.. وكبرتِ واحلوّيتِ يا بت!
- وانت كمان كبرت وشعرك شاب يا معلم.
- مسح بيديه على شعره: "الدهن في العتائي".
- من حظي الأسود إن ما عنديش غيرك ألجأ له.
- سمعت إن المعلم طولان اتقتل، كل اللي شغالين معاه قالوا

إنك اتخانقتِ معاه قبلها بيوم، لا تكوني إنتِ اللي قتلتيه.

- هاقتله إزاي يا معلم، دا الونش يوزن منه اتنين.
- تحسس أصابعه بكف يده، ما انتي عملتيها قبل كدا.
- دي نقرة ودي نقرة يا معلم، وكل حاجة وليها سبب، ولا إيه؟
- ايه.. المهم.. أنا هاسيبك تخدمي هنا في القصر.
- لا، أنا هاشتغل زي أي صبي من الصبيان بتوعك، هاوزع بضاعة.
- وافرض اتقفشتِ.
- الرزق على الله يا معلم.
- قذف إليَّ بورقة تحتوي على العنوان.
- إذا كان كدا.. خدي الطلبية دي وصليها، وعلى الله وعسى ترجعي سليمة.
- إشمعنى حيّ زينهم يا معلم، إنت عارف إن المنطقة دي.
- يا عبيطة الدولاب دا سمعته سابقاه، لا بوليس ولا عفريت أزرق يقدروا يهوبوا ناحيته.

obeikan.com

- لا دولاب ولا حصيرة، شوف لي حتة أهدى من دي.

- م الآخر أبوكي اللي كان ماسك المنطقة دي قبل ما يتمسك، وما فيش حد غيرك هيقدر يسلك معاهم.

كان يطمح أن أرى الجحيم بعيني لأطمع في نعيم جنته، فاختار أبشعها على الإطلاق.

في حي زينهم تجتمع حلة الصوفيين وأناشيد المزاج على دكة واحدة، أقراص الترامادول وأكياس الهيروين وصوابع الحشيش يمكن شراؤها من عربات الخضار مسعرة كما الكوسة والطماطم ولا فصال، كيس الهيروين بخمسة وسبعين جنيهًا، إصبع الحشيش بخمسين جنيهًا، شريط الترامادول بخمسة وعشرين جنيهًا، وعلى رأس كل بائع ناضورجي، ووراء كل عميل جهاز استخباراتي يطلق النار على كل من تسول له نفسه أن يتجسس لصالح الحكومة ولا عجب أن تجد ملصقات على الحوائط مدون عليها أنواع المخدر المستورد والمحلي مع رقم موحد لخدمة التوصيل للمنازل.

الشوارع ضيقة إلى درجة أنه ليس بإمكانك أن تمد ذراعيك إلا بنصف انحناءة، لا تكاد تعرف إن كنت تتجول في منزل أحد السكان أو في زقاق عام، توشك أحبال الغسيل على التداخل لولا اختلاف المقاسات، العنوان شقة بالدور الثالث في مبنى متهالك

تكاد تتسع لفردين عنوة، امتلأت عن آخرها، لا تستطيع تمييز قدم من في رأس من، ولا مصدر لتلك الرائحة الكريهة.

استقبلني على الباب كائن أسود نصف عارٍ.

- بلهجة مخمورة، عاوزة مين ياحلوة؟

- أنا جاية أوصل بضاعة من طرف المعلم شكري.

- ااه، طب ادخلي.

- لا يا آبه، أنا هقف هنا، تجيب الفلوس تاخد الطلبية.

- بس ما تتحمقيش، خليكِ واقفة.

يبدو أن الصوت قد أزعج سبات أحدهم، فرش يديه يتمدد فاصطدمت بالطاولة، زحف فوق الجثث الهامدة، مد يديه أسفل رقبة أحدهم، شد الريموت وأشعل التلفاز.

صوت مذيع شاب يردد:

"صرح البابا تواضروس خلال الاحتفال بأعياد الربيع بأن في مصر ما يقرب من 30 مليون تحت خط الفقر لا بد أن تلتفت الحكومة إليهم"

صوت ممدد بجانب رجل الكنبة:

"دا أكيد إخواني، مش عاوزين البلد تستقر".

عاد الأسود بالمال.

- دا بيقول لك باعوا جزيرة تيران وصفافير للسعودية، الكلام ده حقيقي يا أبلة؟! "يخبط على ذراعي".
- نزعت يده: "مش عارفة يا قَمُّور، ما كنتش شغالة عند الدالعدي وزير النفط قبل كدا!".
- أعصابك يا قشطة هو السؤال حرم، إنتِ شكلك مستقليّة بيَّ ولا إيه؟! دا أنا خريج خدمة اجتماعية أربع سنين والواد اللي ماسك الريموت هناك دا خريج كلية علوم، والواد المزنوق هناك في الحيطة، واد يا ابراهيم، بيشتغل محامي.

قفز فوق بطونهم حتى وصل إليه، ركله بضع ركلات في ظهره!

- قوم يااااد!

- خلاص يا أخويَ، إن شا الله يكون وزير العدل، ادّيني فلوسي عاوزة أمشي.

استدار بظهره فكانت المأساة!

اسمه إبراهيم إذًا... ولكن ما الذي يفعله صاحب الحقوق في شقة مشبوهة؟!

تبادلنا نظرات التساؤل، وقبل ان أنطق بحقيقة علمي به، مدَّ يديه في جيبه وأخرج الدفتر، ولسان حاله يقول: لديَّ ما تبحثين عنه، وأشار بالإبهام مقلوب إلى كوب ماء بجانبه، والدفتر يترنح على حافته.

في المساء استلقيت على ظهري في غرفة خشبية تجاور نباح الكلاب بدارهم "كلب يهش كلاب"، تأملت خطوط طولية وعرضية تزين السقف، أهندس تفاصيل قصته، ما وجه علاقته بالمعلم طولان؟ وكيف وصل الدفتر إلى يديه؟ وكيف علم بوجوده؟ وكيف عرف أن لي علاقة به؟ ولمَ لم يبلغ الشرطة إلى الآن؟ ماذا لو كان هو القاتل؟

قاطع صرير أفكاري صرخات تعلو من الداخل، هرولت إلى باب الخدم الخلفي بعدما سد رجال الأمن باب المدخل الرئيس، أصوات الهمهمة تتسرب من الطابق العلوي، ابنة المعلم شكري مزقت أوتارها بمشرط حاد والتقرير المبدئي شبهة انتحار.

أقسم بأغلظ الإيمان أن يرد اعتباره بأي ثمن، قتل معنوي أدى إلى قتل جسدي، في الأيام الأخيرة كانت قد انتظمت في مصحة لعلاج الإدمان، تحسنت حالتها بشكل ملحوظ، إلا أن صور جسدها العاري التي ألهبت شبكات التواصل الاجتماعي قد زاد من حالتها سوءًا فأغلقت على نفسها باب المتاعب إلى الأبد.

تصفية حسابات وعملية مساومة فاشلة، ولإثبات أن لديهم القدرة على سلب أي شيء من عقر دارك، وإن كان أغلى ما تملك.

في خضم تلك الأحداث لم تنقطع زيارتي لتلك الشقة، توطدت علاقتنا إلى الحد الذى بتنا نتقابل فيه يوميًّا في غرفة مستأجرة في بناء مجاور، لم يكن سؤالى الأول له، كيف أدركت وجودي؟

كان الانطباع الأول ما زال محفورًا في ناظرى، الشاب الوسيم المتعجرف، ذو النظرة الأثينية اللامعة، محاط بعطر فتاة أرستقراطية زادت جاذبيته لافتةٌ مكتوب عليها "متاح فقط لأصحاب الحسابات البنكية".

كيف جادت الرياح بدنوه، تحرك كالسائل يملأ حواسي الميتة بالحياة، عاهدني أن يبدل صور الماضي الأليم بأخرى بيضاء لا تحوي سواه، تقبلني كما أنا، لم يتقزز من رطوبة الحوائط العفنة ولا بقايا السوس الخشبي المتراص هنا وهناك، جذبته من يديه،

هنا كانت غرفتي، وهنا كنت أختبئ من يد أبي الطائشة، وعلى ذلك البساط الأسمنتي تناولت فضلات الطعام راضية، وهنا بجوار الباب اخترقت الرصاصة وجه أمي المتشقق بالمرض، التقط لي صورًا في كل مكان وفوق كل فاجعة، هو أشد من كنت أخاف على ضياعه، ليس لدي صورٌ لأحتفظ بها، فلتكن أنت ذاكرتي.

كان أكبر من أن أسأل، عله يومًا يقص الرواية كاملة.

(٦)

قاتل المعلم طولان ما زال هاربًا والشرطة ما زالت تجري عمليات التفتيش، كل الأدلة تحوم حول اختبائي. إن لم يلق القبض علي بتهمة القتل فحتمًا بتهمة التصنيع والترويج، ولكن إلى متى سأظل تحت رحمة هذا البغي؟

تكررت زياراته هذه الأيام، في أحد الليالي طُرق باب الكشك طرقًا خفيفًا، تأملت الزائر من بين ندوب الألواح الخشبية فإذا هو وقد بلغ مبلغًا لا يدركه وصف، ولا تسعفه الأقاويل.. حاملاً بيديه حقيبة صغيرة فارت منها ملابس نسائية رقيقة تطاردها الرياح طمعًا في تقاسم ذراتها رائحة العطر الفيروزي.

- من خلف الباب: "خير يا معلم؟!".

- دي هدوم بنتي فرح اللي كانت عندي، تيجي مقاسك؟

فتحت الباب بهدوء وقبل أن ينطلق لساني بالقبول أو الرفض كانت الحقيبة وحدها على الأرض في استقبالي.

زاد من حدة الشرب إلى درجة أنه ذات مساء اقتحم الباب الخشبي جهرًا، أوسعته الكلاب نباحًا، فأمر أن تزف بالأغلال إلى مثواها الأخير، قالها صريحة: "أريدك الآن".

- أنا من يريدك، انتظر قليلاً، سأحضر زينتي.

لم أنس سكب مزيدًا من اللون الأحمر من شفتي إلى قدمي، لا مفر من الهرب، بحثت عنها طويلاً، احتفظت بها من أجل ذلك اليوم، قنينة على صغرها تكفي لأن تشفي غليلي منك، اعتصرتُها في الكأس كاملة حتى لان الزجاج، رشفة واحدة من "روح الخشب" تُثمل، وكأس بأكمله ينقلك إلى عالم آخر، هكذا علمتني النِّسَب.

لا يلزمه سوى ثلاث دقائق في معدتك يغير فيها من جلده، يستوطن أحشائك معلنًا التحول من فصيلة الملاك المجنح إلى قسورة الذئاب، ست ساعات ويعلن احتلال ممتلكاتك بالكامل، سيمنحك هدنة ليلية خادعة يصبغ فيها جلدك باللون الأزرق، ستتشقق فروة رأسك عطشًا، فيسقط محصولك خصلة خصلة، حتى إذا حل النهار حرمك هواءه، ستختنق، ستحاول معدتك إفراغ

ما بها عبثًا، لا تحاول الاقتراب من المرآة، نسيت أن أخبرك أن هذا السم يتغذى على ضوء العينين، يلتهمه التهامًا، لن تستطيع حينها الصراخ، آلام البطن والظهر ستهدي إليك طعنتها الأخيرة.

غاب عن الوعي، فلذت بالهرب.

- استنجدت به أطلب العون، طرقت الباب، كان على نصف مواربة، يبدو أنه نزل سريعًا، باتت الغرفة شبه فارغة بعدما كان يملؤها ضجيج فوضاه في كل مكان، حقيبة سفره بجوار السرير، ومظروف جانبي به مجموعة من الصور.

صورتي إلى جواره وضحكة غامرة، صورتي في المنزل القديم، صورة للفتاة الجميلة التي كانت ترافقه، صورة لنفس الفتاة مع المعلم شكري، صورها في أوضاع مخلة، صور رفاقه في تلك الشقة بحي زينهم وأعقاب السجائر المحشوة لا تفارق شفاههم، صور لمصنع المعلم طولان بما يحتويه من ترب حشيش ومواد كيمائية، صورة للصفحة الأولى في صدر الدفتر.. "اذا اغتصب الشحم فلتنزع الجلد" وبجوارها علامة استفهام.

أسطوانة مدون عليها، فيلم وثائقي عن أوكار المخدرات.

فزعني صوته على غفلة:

- إنتِ إيه اللي جابك دلوقتي؟!

لم يرُق لي سؤاله، كلمات تحولك من موضع الهجوم إلى وقفة الدفاع، كان على أن أسألك من البداية، ألهذا الحد كنا ألعوبة بيديك؟ يا سيدي.. أنا لم آتِ، القدر هو من وضعك في طريقي.

لم أكن لك سوى وسيلة لجلب أصحاب القلوب المرهفة والجيوب العامرة، حتى الإنسانية عندما شحت عرضوها في السوق السوداء، استعمرّت قلوب الجميلات، فارضًا حمايتك، حتى إذا انتهت الحرب وفشلت الصفقة، أزهقت الشرف نكاية وتضليلاً.

ولم يكن المعلم طولان سوى وسيلة أغرقته بالمال كي يمنحك فرصة العمر، أن تظهر للعالم أشرعة المزاج وقادة الدفة، أن تكون فاتح مدن الإغواء من أجل البشرية، لا يعلم الجميع أنك مفاوض خاسر، كيف تساوم من فضلوا ثمن شراء أدمغتهم على ثمن رغيف الخبز، كيف لك أن تخيرالمعلم شكري بين المال أو كشف سر تجارته، ربما أخطأتك الذبحة، وصحَّت طريقها إلى شريكك المعلم طولان، لتهدد بورقتك الأخيرة "الصور".

هو لا يعلم شكلك الحقيقي، ما زال يتخيلك قرصانًا أورُبّيًا أو مفاوضًا يهوديًّا، ينزعج كلما لامس الهواء قفاه، لا يعلم من أين ستأتيه الضربة.

ردد بهدوء:

أنـا آسـف جـدًّا، أنـا بلّغـت الشـرطة، هـمّ في الطريـق للقبـض عليـكِ.

يـا هـذا.. أقسـمت بـك أن أنتقـم بـأي طريقـة كانـت، ألا تـدري أن لـي روحًـا مـن خشـب؟! أنـا جـذع لا يحـن، عـود يابـس اجتُثَّ مـن رحـم العنـق كرهًـا، مـا كسـرني صلـب ولا شـقني وصـب، أشـهد أنـك وليـت وجهـك شـطر خداعـي ورسـمت الشـوق فرضًـا، خشـوعًا وتسـليمًا، أشـهد أننـي مـا امتلكـت في الحيـاة سـواك، يـا مـن لا شـريك لـي بـك، سـأطويك شمسًـا غاربـةً.

- أحزننـي حقًّـا أن أرحـل دون حـل لعلامـة اسـتفهامك، آخـر مـا تعـذر عليـك فهمـه.

ألا تريـد أن تكشـف سـر تلـك العبـارة الاسـتفاهمية، فلتشـق جلـد الدفتـر بأظافـرك، الورقـة المخبـأة تحمـل المعنـى.

الشـرطة تمسـك بيديهـا..

أيهـا الشـرطي، لا تمهـل، فلتسـرع الآن، لا أريـد رؤيـة وجهـه في اللحظـات الأخيـرة.

يفتـح الورقـة بيديـه لاهثًـا دون أن يلتفـت حتـى إلـى رحيلهـا... ومـا زال نظرهـا معلقًـا بـه.

"هنيئًا للدود شحمك ولحمك، لقد استنشقت سم الريسين القاتل، لا تهرع إلى الطبيب، السم ليس له ترياق"

●●●

يبقي على كتابة تقرير نهائي لهذا الأسبوع...

"تحت عجلات القطار انتهت أحداث الأسبوع الرابع من هذا الشهر، امرأة كانت تصارع للحاق به، فانزلقت تحت العجلات ممزقة الجسد، إلا أن الحكومة اتخذت تدابير صارمة وحازمة لضمان سلامة المواطن، كي لا يتكرر الحادث متضمنًا تقرير بمجموعة من التوصيات أهمها، ضرورة التشبث "في أثناء الزحام والتدافع" ونكرر "في أثناء الزحام والتدافع فقط" بمن حولك في أثناء الصعود، سواء عن طريق الإمساك بالملابس الداخلية أو لف الذراع حول الخصر، مع ضرورة حمل الهوية ليسهل التعرف علي أشلائك في حال سقطت أسفل العجلات، هذا ونؤكد أن الحادثة فردية وربما الهدف منها تكدير السلم العام...

ونخبر سيادتكم أن الأمن مستتب وأن المسافرين على خير حال، ينعمون في كنف معاليكم.

ملحوظة:- مرفق لسيادتكم مع التقرير دفتر يحتوي بداخل الجلد على تفاصيل مهمة، نرجو منكم الإطلاع إليه".

●●●

انعكاس المرارة

أحدثت ثقبًا بطرف المرآة علّي أستطيع رؤية وجهي من الناحية الأخرى، حال قصر قامتي دون تحريك مفاصلي في الهواء سعيًا للمس ذلك السطح الزجاجي، لا بأس، سأجرب الوقوف على منضدة مرتفعة، حينها أستطيع أن أحشر يدي كاملة، سأشق نافذة تضخ ضوء أكبر إلى ذلك اللوح الأسود، أحتاج إلى رؤية ملامح وجهي، مذ ولدت والجميع متفق على أن أنفي المدبب وفتحة فمي الأسطوانية ومساحة وجهي المستديرة نسخة مكررة من أبي، أما عيني ذات اللون الرمادي فقد اختلفت الأقاويل عليها، قسم يرجع فصيلتي إلى جدي لأبي وقسم آخر ينسبها إلى ابن عم حفيد خالة جدي الأصغر، على حد قولهم.

لكن ماذا لو بلغت يدي طبقًا أو حلة في شقة الجيران أو أسقطت ساعة حائط أو لوحة جدارية بتصميم باهت، ماذا لو طلبت تلك السمينة مقعرة الجوانب تعويضًا، من أين لي هو؟!

ليس لدي سوى ذلك السرير كلما استلقيت عليه سقط لوح خشبي حتى اضطررت إلى بيع ألواحه مكتفيًا بـ (الملة)، ربما علي التضحية بها هي أيضًا، وربما طلبت تعويضًا أكبر، القوانين هنا صارمة ولا تهاون، سأجلد ألف جلدة ولا تهاون.

لا، لن يحدث أبدًا، حتى لو اضطررت إلى بيع كليتي، بثمنها أستطيع شراء الحائط بأكمله، سأحفر تجويفًا أكبر يخترق أسطح الأبنية الملاصقة لحافة الأكسوسفير، وحتمًا سيكون هناك فائض مالي، سأشتري أنبوب أكسجين جديدًا، لم أتذوق رائحته منذ ثلاثة أشهر، منذ أن نفد رصيد بطاقتي التموينية.

"صدع جبهته براحة يديه".

يا للحظ! كيف نسيت أن لدي كلية واحدة، التهم الأطباء الكلية الأخرى حينما أسرعت لإنقاذ أحد أطفال الشوارع من حادث مروع لأتوبيس طائر.

حينها أسرعت تلك الفاتنة –باهتمام زائد– وبطرقعة لبان فاقت سرعتها قوة مولد حراري ١٥٠٠ فولت بتجفيف حبات العرق المتساقطة على صدري، أزاحت الكم الأيمن بخفة يد متناهية، تحسست بأناملها الناعمة شعيرات جلدي المنتصبة، لفت شريط الضغط جيدًا، كبست ضاغط الهواء مرارًا، ثم ظهرت النتيجة المأساوية.

"وجهك شاحب، واصفرار بعينيك يتزايد، على ما يبدو، المرارة فُقِئت".

لم أرَ فاتورة من قبل، كم كانت منظمة ودقيقة، عبارات بألوان زاهية تشرح الصدر.

"نرجو أن تنال الخدمة إعجاب سيادتكم".

هههههه لم يقل لي أحد سيادتكم منذ أن خط الشعر شاربًا تحت أنفي.

رقم زوجي يتبعه ثلاثة أصفار وحمامة سلام ومبعوث بنكي يطلب منكم سرعة التوجه لإتمام الاجراءات، لا بد من دفع الحساب، القوانين هنا صارمة ولا تهاون، رهنت كليتي وخرجت.

توحد تأملي مع قطرات دم مندفعة من شريان استقرت به شظية من لوح زجاجي، صكت أسناني في استياء لتطوع السبابة في حك الجزء الخارجي غارسًا إياه أكثر في اللحم بدلاً من إزالته، علا صرير الأسنان تزامنًا مع لذاذة ذبح الإصبع، كلما زاد الضغط.. زادت شهوتي لغرسه أكثر، رفعته إلى جوف الفم حيث القواطع الثائرة، تذوقت طعم الدم المالح، ولم أكتفِ، علت أظافري للجدران تنهشها بصرخة مكتومة أبت الخروج، لا أريد لتلك الطاقة أن تهدر، على أن أستمتع أولاً.

خارت روحي، أسندت هيكلي إلى الحائط، تلصص الجسم الزجاجى من بين شفتي استعدادًا للخروج، التقطه بيدي، ما زال يحتفظ بلونه الأسود القاتم.

أحتاج أن أرى الضوء، منذ صدور قانون الأبنية الذي يقضي بالاكتفاء بكوة في سقف لا يفصله عن الأرض سوى مترين، وبصيص انعكاس الضوء يخترق الأعمدة الحديدية ثلاث مرات على استحياء كل دورة فلكية كاملة.

الليل يسبق النهار والنهار يسبق الموت، نسمات الهواء الساخنة تودع مخزونها من ثاني أكسيد الكربون في رئتي ثم ترحل على عجل، أتعجب، تعيش الفئران في جحور باطن الأرض، ما الذي أتى بها إلى الطابق التسعين بعد المئة؟!

عشائر قبيلة بأكملها أولت حول بركة الدم، لا تهشَّ الفئران فبعض روثها إن لم يجلب لك الحظ سينقي رائحة الهواء.

جميع من ماتوا قبلي في تلك الحجرة يدينون للفئران بمضغ جلودهم ونتف أوردتهم قبل مرحلة الانفجار الأخيرة، بعد التنظيف الجيد لآثار الجماجم والعظام، تحرق خمس خنفسات لكي تجلب لها ساكن جديد.

مرآة ماكرة، تراقب تحركاتي لحظة بلحظة، كحيزبون تسترق السمع لوقع زخات البول وتدوين عدد ما سقط منها داخل مواسير الصرف الصحي، لذلك صنعت من الملاءة كرفان، الآن أستطيع نزع أوعيتي السفلية دون خوف، وأن ألعن الحزب الحاكم

دون خوف، وأن أتخيل أنني أمير الأمراء أُسيّر جيوشًا من الإبل والنعاج بسوط واحد، وأدهس أصولكم المتوارثة من نسل أول لص في التاريخ بنعلٍ واحد.

رفع حذاءه شاهرًا إياه كالسيف وصوته يعلو:

- سأسحقكم جميعًا.

" المرآة تهتز"..

أسرَعَ بإلقاء الحذاء من يده..

- "العفو والسماح يا سادة، ما أنا إلا عبد أحمق، العفو والسماح"

أصوات رجرجة الجدران تزداد، الحوائط تتراقص على سُوسَت حلزونية، يدور بعينيه في كل اتجاه، يضرب على فخذيه.

- أين أذهب الآن؟! أين أذهب الآن؟!

في المنتصف ركع على ركبتيه، حلت أصابعه التسعُ محل اللسان، وربما التهمته القواطع جزعًا، فتحول إلى قنفذ مبتلٍّ.

- كـ... كيف أجرؤ على الصراخ، كـ... كيف حللت ما حرمته القوانين الصارمة؟!

العفو والسماح، العفو والسماح.

تخرج من خلف المرآة يد تسقطها أرضًا.

تظهر عينان بارزتان تهمسانِ في يأس:

- أبحث عن ضوء، هل لديك ضوء؟!

●●●

obeikan.com

المحتويات	الصفحة
إهداء:.....	٥
إهداء خاص:.....	٦
مورفين:.....	٧
وعكة سياسية:.....	١٥
في الثلاثين من العمر:.....	٢١
تميمة:.....	٣٧
أنا كافر:.....	٤١
صرنا ثلاثة حمقى:.....	٧١
الرجل اليوسفي:.....	٧٥
مؤخرة الكيمكس:.....	٨٥
انعكاس المرارة:.....	١١٣

obeikan.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

obeikan.com